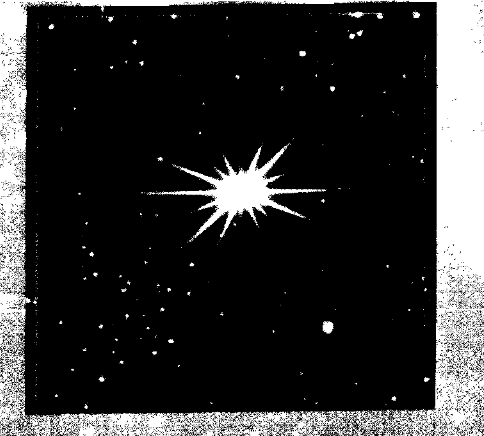


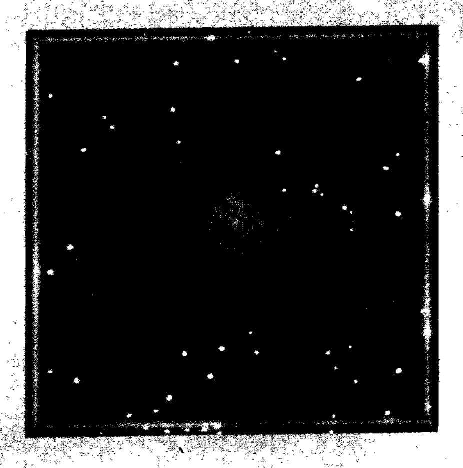
وصايا ومجالس
الإمام جعفر الصادق عليه السلام
توحيد المفضل
دار المرتضى

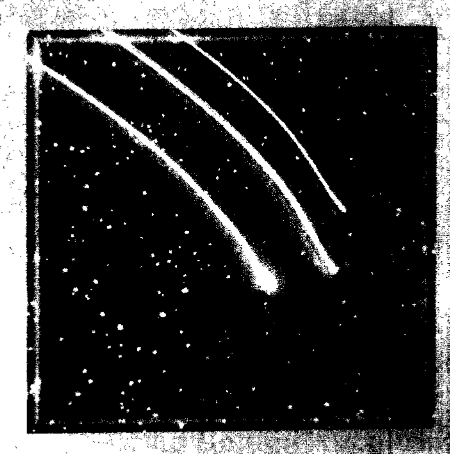




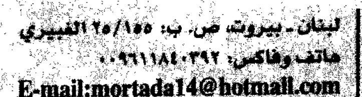
يكشف الإمام الصادق (ع)
لتلميذه - المفضل الجعفي أسرار:

❖ ❖ خلق العالم وجسم الانسان.
❖ ❖ الكون والأفلاك والأجرام السماوية.
❖ ❖ عالم الحيوان وما أبدعه الخالق فيه.
❖ ❖ الفصول الأربعة والليل والنهار.
❖ ❖ الموت والفناء والأمراض.








لبنان - بيروت، ص. ب: ٢٥/١٥٥ الغبيري
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
E-mail:mortada14@hotmall.com

وَصَايا ومَجالِس
الإمَام جَعْفَر الصَّادِق عليه السلام

(توحيد المفضَّل)

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع
لبنان - بيروت
ص.ب: ١٥٥ / ٢٥ الغبيري
تلفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
E-mail: mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - Publishing - Distributing
Lebanon - Beirut
P.O.Box: 155/25 Ghobeiry
TeleFax: 009611840392
E-mail: mortada14@hotmail.com

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هجرية
٢٠٠٣ ميلادية



تقديم للناشر

كان ائمة أهل البيت عليهم السلام يفيضون على الامة بعلومهم، يجيبون على أَسئلة السَّائلين، ويفتحون أبواب المعرفة للناهلين.

إنَّ الإمام جعفر بن محمد الصادق من هذه الدوحة الباسقة والشجرة الثابت أصلها، استغلَّ فترة ضعف الدولة الأُموية وبداية تأسيس العباسيين لدولتهم، لذا أسس مدرسته الفكريَّة الشامخة، فقصده طلاَّب العلم والحقيقة يغرفون من بحار علومه. ومن بين هؤلاء الاصحاب كان المفضل بن عمر الجعفي الذي هاله ما سمعه من بعض الملحدين والشاكّين بقدرة الله تعالى، فتوجّه إلى الإمام عليه السلام يطرح مخاوفه وهواجسه وعدم قدرته على إجابتهم. فما كان من الإمام الصَّادق عليه السلام إلاَّ الطلب من تلميذه أن يأتيه

وخصص له وقتاً لذلك، فصار المفضل يأتي الإمام عليه السلام ويدوّن ما كان يُلقيه امامه العظيم من معارف وآفاق تتناول مختلف جوانب الكون فمن جسم الإنسان وقواه العقلية والنفسية، إلى عالم الحيوان وما أبدعه الخالق الكريم فيها من بدائع الروعة وعظيم الصنعة، إلى ما يحيط بنا من شمس وقمر واجرام سماوية، وما تحويه الأرض من معادن. . . وقد استمرَّت هذه الجلسات. وكان من توفيق الله تعالى أن وصلتنا هذه المجالس الصَّادقية، فسلام الله على إمامنا جعفر الصادق يوم وُلد ويوم أعطى أُمته من فيض علومه ويوم توفي ويوم يُبعث حيّاً مع الشهداء والصّديقين وحَسُن اولئك رفيقاً.

كلام ابن ابي العوجاء مع صاحبه

روى محمد بن سنان، قال: حدثني المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر، وأنا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم، من الشرف والفضائل، وما منحه واعطاه وشرّفه وحباه، مما لا يعرفه الجمهور من الأمة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لكذلك إذ أقبل: «ابن أبي العوجاء» فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه، فتكلم «ابن أبي العوجاء» فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله، فقال له صاحبه: أنه كان فيلسوفاً ادعى المرتبة

العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلّت فيها الاحلام، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات، وهي حسّر، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجاً، فقرن إسمه بإسم ناموسه، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع، التي انتهت إليها دعوته، وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، في كل يوم وليلة خمس مرات مردداً في الأذان والإقامة، ليتجدد في كل ساعة ذكره، ولئلا يخمل أمره.

فقال «ابن أبي العوجاء»: دع ذكر محمد (صلى الله عليه وعلى آله) فقد تحيَّر فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري. وحدثنا في ذكر الأصل الذي نمشي له... ثم ذكر إبتداء الأشياء، وزعم أن ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال!

محاورة المفضل مع ابن أبي العوجاء

قال المفضل: فلم أملك نفسي غضباً وحنقاً، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصوَّرك في أتمِّ صورة، ونقلك في احوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت.

فلو تفكرت في نفسك وصدقك لطيف حسك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من اصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا وأنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق، ولا طيش ولا نزف يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا إنا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة، ويقطع

العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من اصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

سبب إملاء الكتاب على المفضل

قال المفضل: فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما بُلِيَ به الاسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها فدخلت على مولاي عليه السلام فرآني منكسراً فقال: ما لك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريين وبما رددت عليهما. فقال: يا مفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم، والسباع، والبهائم، والطير، والهوام، وكل ذي روح من الأنعام والنبات، والشجرة المثمرة، وغير ذات الثمر والحبوب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول، ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون فبكِّر عليَّ غداً.

* * *

المجلس الأول:

قال المفضل: فانصرفت من عنده فرحاً مسروراً، وطالت عليّ تلك الليلة انتظاراً لما وعدني به، فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فدخلت، وقمت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فجلست، ثم نهض إلى حُجرة كان يخلو فيها، ونهضت بنهوضه، فقال: اتبعني، فتبعته، فدخل ودخلت خلفه، فجلس وجلست بين يديه، فقال: **يا مفضل كأني بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظاراً لما وعدتك**، فقلت: أجل يا مولاي.

فقال: **يا مفضل ان الله تعالى كان ولا شيء قبله، وهو باقٍ ولا نهاية له، فله الحمد على ما ألهمنا، والشكر على ما منحنا، فقد خصنا من العلوم بأعلاها ومن المعالي بأسناها، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه، وجعلنا مهيمنين، عليهم بحكمه.**

فقلت: يا مولاي أتأذن لي أن اكتب ما تشرحه ـ وكنت اعددت معي ما اكتب فيه ـ فقال لي: **افعل يا مفضل.**

جهل الشكاك بأسباب الخلقة ومعانيها

ان الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت افهامهم عن تأمل الصواب، والحكمة فيما ذرأ الباري جل قدسه، وبرأ من صنوف خلقه في البر، والبحر، والسهل، والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود، حتى انكروا خلق الأشياء، وادعوا أن تكوّنها بالإهمال، لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر، ولا صانع، تعالى الله عما يصفون، وقاتلهم الله انى يؤفكون فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفُرشت بأحسن الفرش وأفخره، وَأُعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا

يترددون فيها يميناً وشمالاً، ويطوفون بيوتها ادباراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار، وما أعدّ فيها وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه، وأُعد للحاجة إليه، وهو جاهل للمعنى فيه ولم اعد ولماذا جعل كذلك؟ فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة. فإنهم لما غربت اذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، فلا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته، وحسن صنعته، وصواب هيئته. وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه، والأرب فيه، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالاحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه المنانية الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضلال المعللين أنفسهم بالمحال فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته، وهداه لدينه، ووفقه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها. أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك، ويرغب إليه في الثبات عليه

والزيادة منه فإنه جل اسمه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

* * *

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه، تهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها، على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وخبرته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوع كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيه لشأنه معدٌّ، والإنسان كالمالك ذلك البيت، والمخوّل جميع ما فيه. وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض، جل قدسه وتعالى جده وكرم وجهه ولا إله غيره

تعالى عما يقول الجاحدون، وجلَّ وعظم عما ينتحله الملحدون.

* * *

خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به.. فأول ذلك ما يدَبّرُ به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى. ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه، الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه.

* * *

كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه

حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد ازعاج واعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك

الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ وحرك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي امه كالأداوتين المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن، ما دام رطب البدن رقيق الامعاء لين الاعضاء. حتى إذا تحرك، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الاسنان والاضراس ليمضغ بها الطعام، فيلين عليه. ويسهل له اساغته، فلا يوال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذكر، وعز الرجل الذي يخرج به من جدة الصبا وشبه النساء. وإن كانت انثى يبقى وجهها نقياً من الشعر، لتبقى لها البهجة، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالاهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالمؤود

في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه، ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الاسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام واساغته. أو يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل امه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد.

* * *

حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً؟

قال المفضل فقلت له: يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وإن بلغ الكبر، فقال عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي أنشأه خلقاً، بعد ان لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل

هذا التدبير، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله. لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

* * *

حال المولود لو ولد فهماً عاقلاً وتعليل ذلك

ولو كان المولود يولد فهماً عاقلاً، لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم يرَ مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

واعتبر ذلك بأن من سبي من بلد وهو عاقل، يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلم الكلام، وقبول الأدب، كما يسرع الذي سبي صغيراً غير عاقل، ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجى في المهد لأنه لا يستغني عن هذا كله. لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع

من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج إلى الدنيا غبياً غافلاً عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة. ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء، ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف، والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أُخر، فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الاولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة وما يوجب التربية للآباء على الابناء من المكافأة بالبر، والعطف عليهم، عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الاولاد لا يألفون آباءهم ولا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم، فيتفرّقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمه، ولا يمتنع عن نكاح امه واخته، وذوات المحارم منه، إذا كان لا يعرفهن. وأقل ما في ذلك من القباحة، بل هو أشنع واعظم وأفظع وأقبح وأبشع، لو خرج المولود من بطن أمه وهو يعقل، أن يرى منها ما لا يحل له، ولا يحسن

به أن يراه، أفلا ترى كيف اقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب؟ وخلا من الخطأ دقيقه وجليله.

* * *

منفعة الأطفال في البكاء

اعرف يا مفضل ما للأطفال في البكاء من المنفعة. واعلم إن في أدمغة الأطفال رطوبة، إن بقيت فيها احدثت عليهم احداثاً جليلة وعللاً عظيمة، من ذهاب البصر وغيره، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم. أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتانه ويتوخيان في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء اصلح له واجمل عاقبة. فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالاهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء أنه لا منفعة فيه، من اجل انهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون وكثيراً ما يقصر عنه على المخلوقين محيط به الخالق جل قدسه وعلت كلمته.

فأما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في ابدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة، فأخرجته إلى حد البله والجنون والتخليط إلى غير ذلك من الأمراض المتلفة كالفالج واللقوة وما اشبههما، فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم، لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم، فتفضَّل على خلقه بما جهلوه ونظر لهم بما لم يعرفوه، ولو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلك من التمادي في معصيته، فسبحانه ما اجل نعمته واسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه، تعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً.

* * *

آلات الجماع وهيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على ما يُشاكل ذلك عليه، فجعل للذكر آلة ناشِرةً تمتد حتى تصل النطفة إلى الرحم، إذ كان محتاجاً إلى أن يقذف ماءهُ في غيره، وخلق للأنثى وعاءً

قعراً ليشتمل على الماءين جميعاً. ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم، اليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون!؟

* * *

اعضاء البدن وفوائد كل منها

فكر يا مفضل في اعضاء البدن اجمع، وتدبير كل منها للأرب فاليدان للعلاج، والرجلان للسعي، والعينان للاهتداء، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، والمنافذ لتنفيذ الفضول، والأوعية لحملها، والفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء، إذا ما تأملتها واعملت فكرك فيها ونظرك، وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة.

* * *

زعم الطبيعيين وجوابه

قال المفضل فقلت: يا مولاي أن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة، فقال عليه السلام: سلهم عن هذه الطبيعة

أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من اثبات الخالق، فإن هذه صنعته!!، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، فإن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه، الجارية على ما اجراها عليه.

* * *

عملية الهضم وتكون الدم وجريانه في الشرايين والاوردة

فكر يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن، وما فيه من التدبير، فإنّ الطعام يصير إلى المعدة فتطبخهُ، وتبعث بصفوه إلى الكبد، في عروق دقاق واشجة بينهما، وقد جعلت كالمصفّى للغذاء، لكي لا يصل إلى الكبد منه شيء فينكأها وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف، ثم أن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً، وينفذه إلى البدن كله في مجاري مهيئة لذلك، بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء ليطرد

في الأرض كلها وينفذ ما يخرج منه من الخبث.

والفضول إلى مفائض قد أعدّت لذلك فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة.

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن، ووضع هذه الأعضاء منه مواضعها، واعداد هذه الأوعية فيه، لتحمل تلك الفضول، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه، فتبارك من أحسن التقدير، وأحكم التدبير، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه.

* * *

أول نشوء الأبدان: تصوير الجنين في الرحم

قال المفضل فقلت: صف نشوء الأبدان ونموها حالاً بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال.

قال عليه السلام: أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، ويدبره حتى يخرج سوياً

مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل، إلى ما فيه تركيب أعضائه من العظام، واللحم، والشحم، والعصب، والمخ، والعروق والغضاريف. فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع اعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ اشده إن مد في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك، هل هذا إلا من لطيف التدبير والحكمة.

* * *

اختصاص الإنسان بالإنتصاب والجلوس دون البهائم

انظر يا مفضل ما خص به الإنسان في خلقه تشرفاً، وتفضلاً على البهائم، فإنه خلق ينتصب قائماً، ويستوي جالساً، ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه، ويمكنه العلاج والعمل بهما فلو كان مكبوباً على وجهه كذوات الأربع، لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال.

* * *

تخصص الإنسان بالحواس وتشرُّفه بها دون غيره

انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خص بها الإنسان في خلقه، وشرف بها على غيره. كيف جعلت العينان في الرأس، كالمصابيح فوق المنارة؟ ليتمكن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الاعضاء التي تحتهن، كاليدين والرجلين، فتعترضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة، ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الاعضاء التي وسط البدن، كالبطن، والظهر، فيعسر تقلبها، واطلاعها نحو الأشياء.

* * *

الحواس الخمس وأعمالها وما في ذلك من الأسرار

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة لها. فجعل الحواس خمساً تلقي خمساً لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات. . فخلق البصر ليدرك الألوان فلو كانت

الألوان ولم يكن بصر يدركها، لم تكن فيها منفعة. وخلق السمع ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها، لم يكن فيها ارب، وكذلك سائر الحواس، ثم هذا يرجع متكافياً، فلو كان بصر ولم تكن الألوان، لما كان للبصر معنى، ولو كان سمع ولم تكن أصوات، لم يكن للسمع موضع.

* * *

تقدير الحواس بعضها يلقى بعضاً

فانظر كيف قدر بعضها يلقى بعضاً، فجعل لكل حاسة محسوساً يعمل فيه. ولكل محسوس حاسة تدركه، ومع هذا فقد جعلت أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات، لا تتم الحواس إلا بها، كمثل الضياء والهواء، فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر، لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع، لم يكن السمع يدرك الصوت. فهل يخفى عليه من صح نظره وأعمل فكره، أن مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقي بعضاً، وتهيئة اشياء اخر بها تتم

الحواس، لا يكون إلا بعمل وتقدير من لطيف خبير.

* * *

فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما في ذلك من الموعظة

فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس. وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدميه، ولا يبصر ما بين يديه، فلا يفرق بين الألوان، وبين النظر الحسن والقبيح، ولا يرى حفرة إن هجم عليها ولا عدواً إن اهوى إليه بسيف، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة. حتى أنّهُ لولا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى.

وكذلك من عدم السمع، يختل في أمور كثيرة، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذة الأصوات واللحون المشجية والمطربة، وتعظم المؤنة على الناس في محاورته. حتى يتبرموا به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، حتى يكون كالغائب وهو شاهد، أو كالميت وهو حي.

فأما من عدم العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل، وسائر الخلال التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئاً منها، فلم كان كذلك؟ إلا أنه خلق بعلم وتقدير.

قال المفضل: فقلت فلمَ صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فيناله من ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟ قال عليه السلام: ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة، فلا ينكر عليهم، بل يحمد من رأيهم، ويتصوب من تدبيرهم. ثم أن للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت ـ إن شكروا وأنابوا ـ ما يستصغرون معه ما ينالهم منها، حتى انهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب.

* * *

الأعضاء المخلوقة أفراداً وأزواجاً وكيفية ذلك

فكر يا مفضل في الاعضاء التي خلقت افراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والتقدير، والصواب في التدبير.

فالرأس مما خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد. ألا ترى لو اضيف إلى رأس الإنسان رأس آخر لكان ثقلاً عليه، من غير حاجة إليه، لأن الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان، فإن تكلم كان الآخر معطلاً لا أرب فيه ولا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد، كان احدهما فضلاً لا يحتاج إليه، وإن تكلم بأحدهما بغير الذي تكلم به من الآخر، لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ وأشباه هذه من الاخلاط.

واليدان مما خلق ازواجاً، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون له يد واحدة لأن ذلك كان يخل به فيما يحتاج إلى معالجته من الاشياء ألا ترى ان النجار والبناء لو شلت

احدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإن تكلف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغ إذا كانت يداه تتعاونان على العمل.

* * *

الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان وعمل كل منها

أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم. ألا ترى أن من سقطت اسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، واشبه شيء بذلك المزمار الأعظم، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرئة تشبه الزق الذي ينفخ فيه لتدخل الريح، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزامير والشفتان والاسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً كالأصابع التي تختلف في فم المزمار فتصوغ صفيره ألحاناً غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف فإن المزمار ـ في

الحقيقة ـ هو المشبه بمخرج الصوت.

* * *

ما في الأعضاء من المآرب الأخرى

قد أنبأتك بما في الأعضاء من الغناء في صنعة الكلام وإقامة الحروف، وفيها مع الذي ذكرت لك مآرب اخرى. فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة، فتروح على الفؤاد بالنَّفَس الدائم المتتابع الذي لو حبس شيئاً يسيراً لهلك الإنسان، وباللسان تذاق الطعوم، فيميز بينها، ويعرف كل واحد منها حلوها من مرها وحامضها من مرّها ومالحها من عذبها وطيبها من خبيثها، وفيه مع ذلك معونة على اساغته، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم واعتبر ذلك فإنك ترى من سقطت اسنانه مسترخي الشفة ومضطربها، وبالشفتين يترشف الشراب، حتى يكون الذي يصل إلى الجوف منه بقصد وقدر، لا يثج ثجاً، فيغص به الشارب، أو ينكأ في الجوف، ثم همى بعد ذلك كالباب المطبق على الفم يفتحها الإنسان إذا شاء ويطبقها إذا شاء. وفيما وصفنا من هذا بيان.

إن كل واحد من هذه الاعضاء يتصرف، وينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الأداة الواحدة في اعمال شتى، وذلك كالفأس تستعمل في النجارة والحفر وغيرهما من الأعمال.

* * *

الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها

ولو رأيت الدماغ إذا كشف عنه لرأيته قد لُف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض، وتمسكه فلا يضطرب. ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة، كيما تقيه هدّ الصدمة، والصكة التي ربما وقعت في الرأس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر، حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر والبرد، فمن حصن الدماغ هذا التحصين، إلا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس، والمستحق للحيطة والصيانة، بعلو منزلته من البدن، وارتفاع درجته، وخطير مرتبته.

* * *

الجفن وأشفاره

تأمل يا مفضل: الجفن على العين كيف جعل كالغشاء والاشفار كالاشراح وأولجها في هذا الغار، وأظلها بالحجاب. وما عليه من الشعر.

* * *

الفؤاد ومدرعته

يا مفضل من غيب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة التي غشاؤه، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب، لئلا يصل إليه ما ينكأه.

* * *

الحلق والمريء

من جعل في الحلق منفذين احدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرئة، والآخر منفذاً للغذاء، وهو المريء المتصل بالمعدة الموصل الغذاء إليها، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة فيقتل.

* * *

الرئة وعملها... اشراج منافذ البول والغائط

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تختل لكيلا تتحير الحرارة في الفؤاد، فتؤدي إلى التلف؟. من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجاً. تضبطهما، لئلا يجريا جرياناً دائماً، فيفسد على الإنسان عيشه فكم عسى أن يُحصي المحصي من هذا، بل الذي لا يحصى منه ولا يعلمه الناس أكثر.

* * *

المعدة عصبانية والكبد

من جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها لهضم الطعام الغليظ؟ ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو اللطيف من الغذاء، ولتهضم وتعمل ما هو ألطف من عمل المعدة إلا الله القادر؟ أترى الاهمال يأتي بشيء من ذلك؟ كلا! بل هو تدبير مدبر حكيم قادر، عليمٌ بالاشياء قبل خلقه إياها، لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير.

* * *

المخ والدم والاظفار والاذن ولحم الاليتين والفخذين

فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصناً في أنابيب العظام؟ وهل ذلك إلا ليحفظه ويصونه؟. لم صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف. إلا وقاية لها ومعونة على العمل؟ لم صار داخل الاذن ملتوياً كهيأة اللولب إلا ليطرد فيه الصوت، حتى ينتهي إلى السمع، وليكسر حمة الريح، فلا ينكأ في السمع؟ لم حمل الإنسان على فخذيه وإليتيه هذا اللحم، إلا ليقيه من الأرض، فلا يتألم من الجلوس عليها، كما يألم من نحل جسمه وقل لحمه، إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل يقيه صلابتها.

* * *

الأنسان ذكر وانثى وتناسله وآلات العمل وحاجته وحيلته وإلزامه بالحجة

من جعل الإنسان ذكراً وانثى إلا من خلقه متناسلاً؟ ومن خلقه متناسلاً إلا من خلقه مؤملاً؟ ومن أعطاه آلات

محتاجاً؟ ومن جعله محتاجاً إلا من ضربه بالحاجة؟ ومن ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه؟ ومن خصه بالفهم إلا من أوجب الجزاء؟ ومن وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة؟ ومن يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لم يبلغ مدى شكره.

فكر وتدبر ما وصفته. هل تجد الاهمال يأتي على مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله وتعالى عما يصفون.

* * *

الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة

اصف لك الآن يا مفضل الفؤاد.... اعلم أن فيه ثُقباً موجهة نحو الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد، حتى لو اختلفت تلك الثقب وتزايل بعضها عن بعض، لما وصل الروح إلى الفؤاد، ولهلك الإنسان افيستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالاهمال، ولا يجد شاهداً من نفسه يزعه عن هذا القول؟ لو رأيت فرداً من مصراعين فيه كلوب أكنت تتوهم أنه جعل كذلك بلا معنى؟ بل كنت تعلم ضرورة أنه مصنوع يلقى فرداً آخر، فيبرزه ليكون في

اجتماعهما ضرب من المصلحة. وهكذا تجد الذكر من الحيوان، كأنه فرد من زوج مهيأ من فرد انثى، فليتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه، فتباً وخيبة وتعساً لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى انكروا التدبير والعمد فيها؟.

***

فرج الرجل والحكمة فيه

لو كان فرج الرجل مسترخياً، كيف كان يصل إلى قعر الرحم، حتى يفرغ النطفة فيه؟ ولو كان منعضاً ابداً كيف كان الرجل يتقلب في الفراش، او يمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه، ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر. تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعاً، فقدر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت، ولا يكون على الرجال منه مؤنة، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه.

***

منفذ الغائط ووصفه

اعتبر الآن يامفضل بعظم النعمة على الإنسان في مطعمه ومشربه وتسهيل خروج الأذى. أليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في استر موضع منها، فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الإنسان في استر موضع منه، فلم يجعله بارزاً من خلفه، ولا ناشزاً من بين يديه، بل هو منيب في موضع غامض من البدن، مستور محجوب، يلتقي عليه الفخذان، وتحجبه الإليتان بما عليهما من اللحم فتواريانه، فإذا احتاج الإنسان إلى الخلاء، وجلس تلك الجلسة الفى ذلك المنفذ منه منصباً، مهيأ لإنحدار الثقل. فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولا تحصى نعماؤه.

***

الطواحن من أسنان الإنسان

فكر يا مفضل في هذه الطواحن، التي جعلت للإنسان، فبعضها حداد لقطع الطعام وقرضه، وبعضها

عراض لمضغه ورضه، فلم ينقص واحد من الصفتين، إذا كان محتاجاً إليهما جميعاً.

* * *

الشعر والاظفار وفائدة قصهما

تأمل واعتبر بحسن التدبير في حلق الشعر والأظفار، فانهما لما كانا مما يطول ويكثر، حتى يحتاج إلى تخفيفه أولاً فأولاً، جعلا عديما الحس، لئلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما. ولو كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوجد له ألم، وقع من ذلك بين مكروهين، إما أن يدع كل منهما حتى يطول فيثقل عليه، وأما أن يخففه بوجع وألم يتألم منه.

قال المفضل فقلت: فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج الإنسان إلى النقصان منه، فقال عليه السلام: أن الله تبارك اسمه في ذلك على العبد نعماً لا يعرفها، فيحمده عليها. اعلم إن آلام البدن وأدواءه تخرج بخروج الشعر في مسامه وبخروج الأظفار من أناملها، ولذلك أمر الإنسان بالنورة، وحلق الرأس، وقص الأظفار، في كل أسبوع

ليسرع الشعر والاظفار في النبات، فتخرج الآلام والأدواء بخروجهما... وإذا طالا تحيرا، وقل خروجهما، فاحتسبت الآلام والادواء في البدن فأحدثت عللاً وأوجاعاً، ومنه ـ مع ذلك ـ الشعر من المواضع التي تضر بالإنسان، وتحدث عليه الفساد والضر لو نبت الشعر في العين، ألم يكن سيعمي البصر؟ ولو نبت في الفم، ألم يكن سينغص على الإنسان طعامه وشرابه؟ ولو نبت في باطن الكف، ألم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال؟ ولو نبت في فرج المرأة وعلى ذكر الرجل، ألم يكن سيفسد عليهم لذة الجماع؟... فانظر كيف تنكب الشعر عن هذه المواضع، لما في ذلك من المصلحة، ثم ليس هذا في الإنسان فقط، بل تجده في البهائم والسباع وسائر المتناسلات، فإنك ترى اجسامها مجللة بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه.. فتأمل الخلقة كيف تتحرز وجوه الخطأ والمضرة، وتأتي بالصواب والمنفعة.

* * *

شعر الركب والابطين

إن المنانية واشباههم، حين اجهدوا في عيب الخلقة والعمد عابوا الشعر النابت على الركب والإبطين، ولم يعلموا أن ذلك من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع، فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع المياه أفلا ترى إلى هذه المواضع استر واهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها؟ . . . ثم إن هذه تعد مما يحمل الإنسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه، لما له في ذلك من المصلحة، فأن اهتمامه بتنظيف بدنه. وأخذ ما يعلوه من الشعر، مما يكسر به شرتَه ويكفّ عاديته ويشغله عن بعض ما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والبطالة.

* * *

الريق وما فيه من المنفعة

تأمل الريق وما فيه من المنفعة، فإنه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحلق واللهوات فلا يجف، فإن

هذه المواضيع لو جعلت كذلك، كان فيه هلاك الاسنان ثم كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً، إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة، واعلم أن الرطوبة مطية الغذاء وقد تجري من هذه البلّة إلى مواضع أُخر من المرة فيكون في ذلك صلاح تام للإنسان، ولو يبست المرة لهلك الإنسان.

* * *

محاذير كون بطن الإنسان كهيئة القباء

ولقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز وقصور العلم: لو كان بطن الإنسان كهيئة القباء يفتحه الطبيب إذا شاء فيعاين ما فيه، ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه ألم يكن أصلح من أن يكون مُصمتاً محجوباً عن البصر واليد، لا يعرف ما فيه إلا بدلالات غامضة، كمطل النظر إلى البول، وجس العرق، وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة، حتى ربما كان ذلك سبباً للموت، فلو علم هؤلاء الجهلة أن هذا لو كان هكذا، كان أول ما فيه أن كان يسقط عن الإنسان الوجل من الأمراض والموت وكان

يستشعر البقاء ويغتر بالسلامة فيخرجه ذلك إلى العتو والأشر. ثم كانت الرطوبات التي في البطن تترشح وتتحلب فيفسد على الإنسان مقعده ومرقده وثياب بدلته وزينته، بل كان يفسد عليه عيشه، ثم أن المعدة والكبد والفؤاد إنما يفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف، فلو كان في البطن فرج ينفتح حتى يصل البصر إلى رؤيته، واليد إلى علاجه، لوصل برد الهواء إلى الجوف. فمازج الحرارة الغريزية، وبطل عمل الاحشاء، فكان في ذلك هلاك الإنسان، أفلا ترى أن كل ما تذهب إليه الأوهام ـ سوى ما جاءت به الخلقة ـ خطأ وخطل.

* * *

أفعال الإنسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك

فكر يا مفضل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها... فإنه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به، فالجوع يقتضي الطعم الذي فيه راحة البدن وقوامه والكرى يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن واجمام قواه، والشبق

يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه.. ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام، لمعرفته بحاجة بدنه إليه، ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك، كان خليقاً أن يتوانى عنه احياناً بالثقل والكسل، حتى يضعف بدنه فيهلك، كما يحتاج الواحد إلى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض والموت، وكذلك لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر في حاجته إلى راحة البدن واجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك، فيدفعه حتى ينهك بدنه. ولو كان إنما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد أن يفتر عنه، حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب في الولد، ولا يحفل به.

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه، محركاً من نفس الطبع يحركه لذلك، ويحدوه عليه.

واعلم أن في الإنسان قوى اربعاً: قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده على المعدة، وقوة ماسكة تحبس الطعام، حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها، وقوة هاضمة، وهي التي

تطبخه، وتستخرج صفوه، وتبثه في البدن، وقوة دافعة تدفعه وتحدر الثفل الفاضل، بعد اخذ الهاضمة حاجتها. . ففكر في تقدير هذه القوى الأربع التي في البدن وأفعالها وتقديرها للحاجة إليها والأرب فيها، وما في ذلك من التدبير والحكمة، فلولا الجاذبة كيف كان يتحرك الإنسان لطلب الغذاء الذي به قوام البدن؟ ولولا الماسكة كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة؟ ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلله ولولا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج أولاً فأولاً؟ أفلا ترى كيف وكل الله سبحانه ـ بلطف صنعه وحسن تقديره ـ هذه القوى بالبدن، والقيام بما فيه صلاحه. . . وسأمثل لك في ذلك مثالاً: أن البدن بمنزلة دار الملك، له فيها حشم وصبية وقوام موكلون بالدار، فواحد لقضاء حوائج الحشم وايرادها عليهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه، إلى أن يعالج ويهيأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه، وآخر لتنظيف ما في الدار من الأقذار وإخراجه منها، فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين، والدار هي البدن، والحشم هم الاعضاء، والقوم

هم هذه القوى الأربع. ولعلك ترى ذكرنا من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الاطباء ولا قولنا فيه كقولهم، لأنهم ذكروها على ما يحتاج إليه في صناعة الطب وتصحيح الابدان، وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي كالذي أوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها.

* * *

قوى النفس وموقعها من الانسان

تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس، وموقعها من الإنسان، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده، كيف كانت تكون حاله، وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجاربه، إذا لم يحفظ ما له وما عليه وما اخذه وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من احسن إليه ممن أساء به، وما نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى، ولا يحفظ علماً لو درسه عمره ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة، ولا

يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية.

* * *

النعمة على الإنسان في الحفظ والنسيان

فانظر إلى النعمة على الإنسان في هذه الخلال، وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع، واعظم من النعمة على الإنسان، في الحفظ النعمة في النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة، ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات، ولا رجاء غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسد. أفلا ترى كيف جعل في الإنسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان، وجعل له في كُلٍّ منهما ضرباً من المصلحة. وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء المتضادة المتباينة، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة.

* * *

اختصاص الإنسان بالحياء دون بقية الحيوانات

انظر يا مفضل إلى ما خص به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق، الجليل قدره العظيم غناؤه، اعني: الحياء. فلولاه لم يُقر ضيف ولم يوف بالعداة، ولم تقض الحوائج، ولم يتحر الجميل، ولم يتنكب القبيح في شيء من الأشياء، حتى أن كثيراً من الأمور المفترضة أيضاً إنما يفعل للحياء فإن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم، ولم يؤد امانة، ولم يعف عن فاحشة... أفلا ترى كيف وفي الإنسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام أمره.

* * *

اختصاص الإنسان بالمنطق والكتابة

تأمل يا مفضل ما أنعم الله ـ تقدست اسماؤه ـ به على الإنسان، من هذا المنطق الذي يعتبر به عما في ضميره، وما يخطر بقلبه، وينتجه فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة، التي لا تخبر عن

نفسها بشيء، ولا تفهم عن مخبر شيئاً، وكذلك الكتابة التي بها تقيد اخبار الماضين للباقين واخبار الباقين للآتين، وبها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرها، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب ولولاه لانقطع اخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم، وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم ومعاملاتهم، وما يحتاجون إلى النظر فيه من امر دينهم، وما روي لهم، مما لا يسعهم جهله، ولعلك تظن أنها مما يخلص إليه بالحيلة والفطنة، وليست مما أعطيه الإنسان من خلقه وطباعه.

وكذلك الكلام، إنما هو شيء يصطلح عليه الناس، فيجري بينهم ولهذا صار يختلف في الأمم المختلفة، وكذلك لكتابة العربي والسرياني والعبراني والرومي، وغيرها من سائر الكتابة، التي هي متفرقة في الأمم إنما اصطلحوا عليها، كما اصطلحوا على الكلام، فيقال لمن أدعى ذلك: أن الإنسان وإن كان له في الأمرين جميعاً فعل أو حيلة، فإن الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة،

عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه، فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام، وذهن يهتدي به للأمور، لم يكن ليتكلم ابداً ولو لم تكن له كف مهيئة واصابع للكتابة، لم يكن ليكتب ابداً.

واعتبر ذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة، فأصل ذلك فطرة الباري جل وعز، وما تفضل به على خلقه، فمن شكر أُثيب، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

* * *

اعطاء الإنسان ما يصلح دينه ودنياه ومنعه مما سوى ذلك

فكر يا مفضل فيما اعطي الإنسان علمه وما منع، فإنه أُعطي جميع علم ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق، ومعرفة الواجب عليه، من العدل على الناس كافة. وبر الوالدين، وأداء الأمانة، ومواساة أهل الخلة، واشباه ذلك، مما قد توجد معرفته، والاقرار، والاعتراف به

في الطبع والفطرة، من كل امة موافقة او مخالفة، وكذلك أُعطي علم ما فيه صلاح دنياه، كالزراعة والغراس، واستخراج الأرضين، واقتناء الأغنام والأنعام، واستنباط المياه، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن، والغوص في البحر، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان، والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار. فأعطى علم ما يصلح به دينه ودنياه، ومنع ما سوى ذلك، مما ليس في شأنه ولا طاقته أن يعلم. كعلم الغيب وما هو كائن. وبعض ما قد كان أيضاً، كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض. وما في لجج البحار واقطار العالم، وما في قلوب الناس وما في الأرحام واشباه هذا مما حجب عن الناس علمه.

وقد ادَّعت طائفة من الناس هذه الأمور، فأبطل دعواهم ما يبين من خطئهم، فيما يقصون عليه ويحكمون به فيما ادعو عليه.

فانظر كيف اعطي الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك، ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين فيها صلاحه.

* * *

ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته، فإنه لو عرف مقدار عمره ـ وكان قصير العمر ـ لم يتهنأ بالعيش، مع ترقب الموت وتوقعه، لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله، أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر، والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على أن الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال، لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه، فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر، ثم عرف ذلك، وثق بالبقاء، وانهمك في اللذات والمعاصي، وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته، ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله، ألا ترى لو أن عبداً لك عمل

على أنه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أو شهراً، لم تقبل ذلك منه، ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتك ونصحك في كل الأمور؟ وفي كل الأوقات، على ترصف الحالات (فإن قلت) أو ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حيناً ثم يتوب فتقبل توبته؟ (قلنا): أن ذلك شيء يكون من الإنسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها. من غير أن يقدرّها في نفسه، ويبني عليه أمره، فيصفح الله عنه، ويتفضل عليه بالمغفرة، فإما من قدر أمره على أن يعصي ما بدا له، ثم يتوب آخر ذلك، فإنما يحاول خديعة من لا يخادع، بأن يتسلف التلذذ في العاجل، ويعد ويمني نفسه التوبة في الآجل، ولأنه لا يفي بما يعد من ذلك، فإن النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة التوبة، ولا سيما عند الكبر وضعف البدن، امر صعب، ولا يؤمن على الإنسان، مع مدافعته بالتوبة أن يرهقه الموت، فيخرج من الدنيا غير تائب، كما قد يكون على الواحد دَيْن إلى اجل، وقد يقدر على قضائه، فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الأجل، وقد نفذ المال، فيبقى الدَّيْن قائماً عليه. فكان خير الأشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره، فيكون طول عمره يترقب

الموت، فيترك المعاصي، ويؤثر العمل الصالح (فأن قلت): وها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته، وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم (قلنا): أن وجه التدبير في هذا الباب، هو الذي جرى عليه الأمر فيه فإن كان الإنسان مع ذلك لا يرعوي ولا ينصرف عن المساوي، فإنما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه، لا من خطأ في التدبير، كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به، فإن كان المريض مخالفاً لقول الطبيب، لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه، لم ينتفع بصفته، ولم تكن الاساءة في ذلك للطبيب بل للمريض، حيث لم يقبل منه. ولئن كان الإنسان مع ترقبه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي، فإنه لو وثق بطول البقاء كان احرى بأن يخرج إلى الكبائر الفظيعة.. فترقب الموت على كل حال خيرٌ له من الثقة بالبقاء ثم أن ترقب الموت وإن كان صنف من الناس يلهون عنه، ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم، وينزعون عن المعاصي، ويؤثرون العمل الصالح، ويجودون بالأموال والعقائل النفسية في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه

الخصلة لتضييع أولئك حظهم منها.

* * *

الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك

فكر يا مفضل في الأحلام كيف دبر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها، فإنها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب، لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى له، فصارت تصدق أحياناً، فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها، أو مضرة يتحذر منها، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد.

* * *

الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان وإيضاح ذلك

فكر يا مفضل في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم، فالتراب للبناء، والحديد للصناعات، والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء وغيرها، والنحاس للأواني. والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة، والحبوب للغذاء، والثمار للتفكه، واللحم

للمآكل، والطيب للتلذذ، والأدوية للتصحح والدواب للحمولة. والحطب للتوقد، والرماد للكلس، والرمل للأرض، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا وشبهه... أرأيت لو أن داخلاً دخل داراً، فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس، ورأى كل ما فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة أكان يتوهم أنمثل هذا يكون بالاهمال، ومن غير عمد؟ فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا من صنع الطبيعة في العالم، وما اعد فيه من هذه الأشياء.

اعتبر يا مفضل بأشياء لمآرب الإنسان، وما فيها من التدبير فإنه خلق له الحب لطعامه، وكلف طحنه وعجنه وخبزه، وخلق له الوبر لكسوته، فكلف ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشجر، فكلف غرسها وسقيها والقيام عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته، فكلف لقطها وخطلها وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم يكن عنده فيها حيلة. وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة، لما له في ذلك من الصلاح لأنه لو كُفِيَ هذا كله، حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل، لما حملته الأرض

اشراً وبطراً ولبلغ به ذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه، ولو كفى الناس كل ما يحتاجون إليه لما تهنأوا بالعيش ولا وجدوا له لذة... ألا ترى لو أن امرءاً نزل بقوم، فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة، لتبرم بالفراغ ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيء، فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى شيء؟ فكان من صواب التدبير في هذه الاشياء التي خلقت للإنسان: أن جعل له فيها موضع شغل، لكيلا تبرمه البطالة، ولتكفُّه عن تعاطي ما لا يناله، ولا خير فيه إن ناله.

***

الخبز والماء رأس معاش الإنسان وحياته

واعلم يا مفضل إن رأس معاش الإنسان وحياته: الخبز والماء... فانظر كيف دُبِّرَ الأمر فيهما، فإن حاجة الإنسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز، وذلك ان صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش، والذي يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز، لأنه يحتاج إليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل ثيابه وسقي انعامه

وزرعه فجعل الماء مبذولاً لا يشترى لتسقط عن الإنسان المؤنة في طلبه وتكلفه، وجعل الخبز متعذراً لا ينال إلا بالحيلة والحركة، ليكون للانسان في ذلك شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والعبث... ألا ترى أن الصبي يُدفع إلى المؤدب، وهو طفل لم تكمل ذاته للتعليم، كل ذلك ليشتغل عن اللعب والعبث اللّذين ربما جنيا عليه وعلى أهله المكروه العظيم. وهكذا الإنسان لو خلا من الشغل، لخرج من الأشر والعبث والبطر، إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه. واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة ورفاهية العيش والترفة والكفاية، وما يخرجه ذلك إليه.

***

اختلاف صُوَر الناس وتشابه الوحوش والطير وغيرها والحكمة في ذلك

اعتبر لِمَ لا يتشابه الناس واحد بالآخر، كما تتشابه الوحوش والطير وغير ذلك، فإنك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الأخرى، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم، حتى لا يكاد اثنان

منهم يجتمعان في صفة واحدة. والعلة في ذلك أن الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم، لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل ذلك، فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته. ألا ترى أن التشابه في الطير والوحش لا يضرها شيئاً، ليس كذلك الإنسان، فإنه ربما تشابه التوأم تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما، حتى يعطي أحدهما بالآخر، ويؤخذ احدهما بذنب الآخر، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الأشياء. فضلاً عن تشابه الصور، فمن لَطُفَ بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال، حتى وقف بها على الصواب، إلا من وسعت رحمته كل شيء.

لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط، وقال لك قائل: ان هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع!.... أكنت تقبل ذلك، بل كنت تستهزىء به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق.

***

نمو أبدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك

لِمَ صارت أبدان الحيوان - وهي تغتذي أبداً - لا تنمى، بل تنتهي إلى غاية من النمو، ثم تقف ولا تتجاوزها، لولا التدبير، في ذلك، فإن تدبير الحكيم فيها أن تكون ابدان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير، وصارت تنمى حتى تصل إلى غايتها، ثم تقف ثم لا تزيد، والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو تنمى نمواً دائماً لعظمت ابدانها، واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف.

***

ما يعتبر أجسام الانس من ثقل الحركة والمشي لو لم يصبها ألم

لِمَ صارت أجسام الانس خاصة تثقل عن الحركة والمشي، وتجفو عن الصناعات اللطيفة، إلا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج إليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك، لو كان الإنسان لا يصيبه ألم ولا وجع، بم كان يرتدع

عن الفواحش، ويتواضع لله، ويتعطف على الناس.... أما ترى الإنسان إذا عرض له وجع خضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية، وبسط يده بالصدقة، ولو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار - الخبثاء - ويذل العصاة المردة، وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات، وبم كان العبيد يذلون لأربابهم، ويذعنون لطاعتهم. أفليس هذا توبيخ (ابن أبي العوجاء) وذويه الذين جحدوا التدبير.

(والمانوية) الذين انكروا الوجع والألم.

* * *

انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً واناثاً

ولو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط أو انثى فقط ألم يكن النسل منقطعاً وباد مع أجناس الحيوان، فصار بعض الأولاد يأتي ذكوراً وبعضها يأتي إناثاً ليدوم التناسل ولا ينقطع.

* * *

ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون المرأة وما في ذلك من التدبير

لِمَ صار الرجل والمرأة إذا أدركا تنبت لهما العانة، ثم تنبت اللحية للرجل، وتتخلف عن المرأة. لولا التدبير في ذلك، فإنه لما جعل الله تبارك وتعالى الرجل قيماً ورقيباً على المرأة، وجعل المرأة عرساً وخولاً للرجل، اعطى الرجل اللحية، لما له من العز والجلالة والهيبة، ومنعها المرأة، لتبقى لها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمضاجعة أفلا ترى الخلقة وكيف تأتي بالصواب في الأشياء، وتتخلل مواضع الخطأ فتعطي وتمنع على قدر الارب والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل.

قال المفضل: ثم حان وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة، وقال: بَكِّر إليَّ غداً انشاء الله تعالى.. فانصرفت من عنده مسروراً بما عرفته، مبتهجاً بما أوتيته، حامداً الله تعالى عز وجل على ما انعم به عليَّ شاكراً لأنعمه على ما منحني بما عرفنيه مولاي، وتفضل به عليَّ، فنمت في ليلتي

مسروراً بما منحنيه، محبور بما علمنيه.

* * *

المجلس الثاني:

قال المفضل: فلما كان اليوم الثاني بكّرت إلى مولاي فاستؤذنَ لي فدخلت، فأمرني بالجلوس فجلست فقال: ـ.

الحمد لله مدبِّر الأدوار، ومعيد الأكوار، طبقاً عن طبق، وعالماً بعد عالم، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، عدلاً منه، تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه، لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، يشهد بذلك قوله جل قدمه ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ في نظائر لها في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (تنزيل من حكيم حميد) ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله: «**إنما هي أعمالكم ترد إليكم**».

ثم أطرق الإمام هنيئة وقال: يا مفضل الخلق حيارى

عمهون سكارى في طغيانهم يترددون، وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون، بصراء عمي لا يبصرون، نطقاء بكم لا يعقلون، سمعاء صم لا يسمعون، رضوا بالدون، وحسبوا، انهم مهتدون، حادوا عن مدرجة الاكياس ورتعوا في مرعى الارجاس الانجاس، كأنهم من مفاجآت الموت آمنون، وعن المجازات مزحزحون، يا ويلهم ما أشقاهم، وأطول عناءهم وشد بلاءهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾!

قال المفضل: فبكيت لما سمعت منه!.. فقال: لا تبكِ تخلصت إذ قبلت، ونجوت اذ عرفت.

* * *

أبنية أبدان الحيوان وتهيئتها وايضاح ذلك

ثم قال: ابتدىء لك بذكر الحيوان ليتضح لك من امره ما وضح لك من غيره. فكر في أبنية أبدان الحيوان، وتهيئتها على ما هي عليه فلا هي صلاب كالحجارة، ولو كانت كذلك لا تنثني، ولا تتصرف في الأعمال، ولا هي على غاية اللين والرخاوة، فكانت لا تتحامل، ولا تستقل

بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثني، تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده، وتضم بعضه إلى بعض، وغلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله واشباه ذلك، هذه التماثيل التي تعمل من العيدان، وتلف بالخرق وتشد بالخيوط، وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام، والخرق بمنزلة اللحم، والخيوط بمنزلة العصب والعروق، والطلاء بمنزلة الجلد، فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرك حدث بالاهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميتة، فإن كان هذا غير جائز في التماثيل فبالحري أن لا يجوز في الحيوان.

* * *

اجساد الانعام وما اعطيت ومامنعت وسبب ذلك

وفكر يا مفضل ـ بعد هذا ـ في اجساد الانعام فإنها حين خلقت على ابدان الانس من اللحم والعظم والعصب، اعطيت ايضاً السمع والبصر ليبلغ الإنسان حاجته، فإنها لوكانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان ولا تصرفت في شيء من مآربه، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان، فلا

تمتنع عليه، إذا كدها الكد الشديد، وحمّلها الحمل الثقيل. فإن قال قائل أنه قد يكون للإنسان عبيد من الانس، يذلون ويذعنون بالكد الشديد، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن. فيقال في جواب ذلك: إنّ هذا الصنف من الناس قليل، فأما أكثر الناس فلا يُذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك، ولا يغرون بما يحتاج إليه منه... ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة أناسي، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم فضل لشيء من الصناعات مع ما يلحقه من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والكد في معاشهم.

* * *

خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان

فكر يا مفضل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها، على ما هي عليه مما فيه صلاح كل واحد منها. فالانس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج

لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة والخياطة، وغير ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الاشياء، واوكدها هذه الصناعات.

* * *

آكلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها

وآكلات اللحم لما قدر أن تكون معائشها من الصيد، خلقت لهم أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات، وآكلات النبات لما قدر أن يكونوا، لا ذوات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أظلافٌ تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى، ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم تنطبق على الأرض عند تهيئها للركوب والحمولة.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان، حين خلقت ذوات أسنان حداد، وبراثن شداد، واشداق وافواه واسعة، فإنه لما قدر أن يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك وأُعينت بسلاح، وأدوات تصلح للصيد، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيئة

لفعلها، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد اعطيت ما لا تحتاج إليه، لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه، اعني السلاح الذي تصيد به وتعيش. أفلا ترى كيف اعطى كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته. بل ما فيه بقاؤه وصلاحه.

* * *

ذوات الأربع واستقلال اولادها

انظر الآن إلى ذوات الاربع كيف تراها تتبع اماتها ـ جمع أم وتقال للحيوان ـ مستقلة بأنفسها لا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج اولاد الانس، فمن اجل أنه ليس عند اماتها ما عند امهات البشر من الرفق والعلم بالتربية، والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها وكذلك ترى كثيراً من الطير كمثل الدجاج والدرّاج والقبج، تدرج وتلقط حين تنقاب عنها البيضة. فأما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض فيه، كمثل فراخ الحمام واليمام والحمَّر فقد جعل في الامهات فضل

عطف عليها، فصارت تمج الطعام في افواهها بعد ما توعيه حواصلها فلا تزال تغذوها حتى تستقل بأنفسها، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرة مثل ما ترزق الدجاج، لتقوى الأم على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكلاً أُعطي بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير.

* * *

قوائم الحيوان وكيفية حركتها

أنظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي ازواجاً، لتتهيّأ للمشي، ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك، لأن الماشي ينقل قوائمه يعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف، لأن ذا الأربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر، لم يثبت على الأرض، كما يثبت السرير وما اشبهه، فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره، وينقل الأخريين ايضاً من خلاف، فيثبت على الأرض، ولا يسقط إذا مشى.

* * *

انقياد الحيوانات المسخرة للانسان وسببه

أما ترى الحمار كيف يُذَلُّ للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعاً منعماً، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبي؟ والثور الشديد كيف يذعن لصاحبه، حتى يضع النير على عنقه، ويحرث به؟ والفرس الكريم يركب السيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه واحد، ولو تفرقت الغنم فأخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها. وكذلك جميع الأصناف المسخرة للإنسان.. كانت كذلك؟ الا بأنها عدمت العقل والروية، فإنها لو كانت تعقل وتتروى في الأمور كانت خليقة أن تلتوي على الإنسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه، وتتفرق الغنم عن راعيها واشباه هذا من الأمور.

* * *

افتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك

وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت على الناس، كانت خليقة أن تجتاحهم، فمن كان يقوم للاسد والذئاب والنمور والدببة، لو تعاونت وتظاهرت على الناس؟... أفلا ترى كيف حجر ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها، تهاب مساكن الناس وتحجم عنها، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطلب قوتها إلا بالليل، فهي مع صولتها كالخائف من الإنس بل مقموعة ممنوعة منهم ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيّقت عليهم.

* * *

عطف الكلب على الإنسان ومحاماته عنه

ثم جعل الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه، وحافظ له، يتنقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الذعار عنه، ويبلغ

من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الالف حتى يصبر معه على الجوع والجفوة... فلمَ طُبع الكلب على هذه الألفة والمحبة؟ إلا ليكون حارساً للإنسان له عين بأنياب ومخالب، ونباح هائل، ليذعر منه السارق، ويتجنب المواضع التي يحميها ويخفرها.

* * *

وجه الدابة وفمها وذنبها وشرح ذلك

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو..؟ فإنك ترى العينين شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها، لئلا تصدم حائطاً، أو تتردى في حفرة وترى الفم مشقوقاً شقاً في اسفل الخطم ولو شق كمكان الفم من الإنسان في مقدم الذقن، لما استطاع أن يتناول به شيئاً من الأرض ألا ترى أن الإنسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده، تكرمة له على سائر الآكلات، فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جُعل خرطومها مشقوقاً من أسفله، لتقبض على العلف ثم تقضمه، واعينت بالجحفلة لتتناول بها ما قرب وما بعد...

اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه، فإنه بمنزلة الطبق على الدبر والحياء جميعاً، يواريهما ويسترهما، ومن منافعها فيه أن ما يبين الدبر ومراقي البطن منها وضر يجتمع عليها الذباب والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها عن تلك المواضع، ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة، فإنه لما كان قيامها على الأربع بأسرها، وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب، كان لها في تحريك الذنب راحة، وفيه منافع اخرى يقصر عنها الوهم، فيعرف موقعها في وقت الحاجة إليها، فمن ذلك أن الدابة ترتطم في الوحل، فلا يكون شيء أعون على نهوضها، من الأخذ بذنبها، وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم، ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحاً على قوائم اربع ليتمكن من ركوبها، وجعل حياها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها، ولو كان اسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها... ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة.

* * *

الفيل ومشفره

تأمل مشفر الفيل وما فيه من لطيف التدبير، فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء، وازدرادهما إلى جوفه، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض، لأنه ليست له رقبة يمدها كسائر الانعام، فلما عدم العنق أُعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ليسد له، فيتناول به حاجته. . . فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤوف بخلقه؟ وكيف يكون هذا بالاهمال ـ كما قالت الظلمة ـ؟ فإن قال قائل: فما باله لم يُخلق ذا عنق كسائر الأنعام؟ قيل ان رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم، وثقل ثقيل، فلو كان ذلك على عنق عظيم، لهدها وأوهنها، فجعل رأسه ملصقاً بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه، وخلق له مكان العنُقِ هذا المشفر ليتناول غذاءه، فصار مع العنق ـ مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته.

* * *

حياء الأنثى من الفيلة

انظر الآن كيف جعل حياء الانثى من الفيلة في اسفل بطنها؟ فإذا هاجت للضراب ارتفع وبرز، حتى يتمكن الفحل من ضربها. . فاعتبر كيف جعل حياء الانثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للأمر الذي فيه قوام النسل ودوامه.

* * *

الزرافة وخلقتها وكونها ليست من لقاح أصناف شتى

فكر في خلق الزرافة، واختلاف اعضائها، وشبهها باعضاء أصناف من الحيوان. فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق جمل، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر.

وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل: أن نتاجها من فحول شتى، قالوا: وسبب ذلك أن اصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة، وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من اصناف شتى وهذا جهل من

قائله، وقلة معرفة بالباري جل قدسه، وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف، فلا الفرس يلقح الجمل، ولا الجمل يلقح البقر، وإنما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه، كما يلقح الفرس الحمار، فيخرج بينهما البغل، ويلقح الذئب الضبع، فيخرج من بينهما السبع . ـ ولد الذئب من الضبع ـ على أنه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما، كما في الزرافة، عضو من الفرس وعضو من الجمل، واظلاف من البقرة، بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذي تراه في البغل، فإنك ترى رأسهُ وأذنيه وكفله ـ بمجزه ـ وذنبه وحوافره وسطاً من بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار وشحيجهُ ـ صوته ـ كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار، فهذا دليلٌ على أنّه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتّى، كما زعم الجاهلون، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء، وليعلم أنه خالق أصناف الحيوان كلها، يجمع بين ما يشاء من اعضائها، في أيها شاء ويفرق ما شاء منها في ايها شاء، ويزيد في الخلقة ما شاء. وينقص منها ما شاء. ، دلالة على

قدرته على الاشياء، وأنه لا يعجز شيء أراده جل وتعالى... فاما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فإن منشأها ومرعاها في الغياطل الكثيفة ـ الأشجار ـ ذوات أشجار شاهقة، ذاهبة طولاً في الهواء. فهي تحتاج إلى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلك الأشجار فتقوت من ثمارها.

* * *

القرد وخلقته والفرق بينه وبين الانسان

تأمل خلقة القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر، وكذلك أحشاؤه شبيهة أيضاً بأحشاء الإنسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يؤميء إليه ويحكي كثيراً مما يرى الإنسان يفعله، حتى أنه يقرب من خلق الإنسان وشمائله في التدبير في خلقته على ما هي عليه. أن يكون عبرة للإنسان في نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. وأنه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم على أن في جسم القرد فضولاً اخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم

والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله. وهذا لم يكن مانعاً للقرد أن يلحق بالإنسان لو اعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل بينه وبين الإنسان - في الحقيقة - هو النقص في العقل والذهن والنطق.

* * *

اكساء أجسام الحيوانات وخلقة أقدامها بعكس الإنسان وأسباب ذلك

انظر يا مفضل إلى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت أجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الآفات أُلْبِسَت الاظلاف والحافر والاخفاف لتقيها من الحفاء إذ كانت لا أيدي لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج فكفوا بأن جعل كسوتهم في خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون إلى تجديدها واستبدال بها.

فأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل. فهو ينسج ويغزل ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال. وله في ذلك صلاح من جهات. ومن ذلك أنه يشتغل

بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية. ومنها أنه يستريح إلى خلع كسوته إذا شاء ولبسها إذا شاء ومنها أن يتخذ لنفسه من الكسوة ضروباً لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقي بها قدميه. وفي ذلك معائش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معائشهم ومنها أقواتهم وأقوات عيالهم. فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة والأظلاف والحوافر والاخفاف مقام الحذاء.

* * *

مواراة البهائم عند احساسها بالموت

فكر يا مفضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم، فإنهم يوارون انفسهم إذا ماتوا، كما يواري الناس موتاهم، وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها، لا يرى منها شيء، وليست قليلة فتخفى لقلتها؟ بل لو قال قائل: أنها أكثر من الناس لصدق.

فاعتبر في ذلك بما تراه في الصحاري والجبال من

اسراب الظباء والمها والحمير الوحش والوعول والأيائل وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع من الأسد والضباعِ والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض، وكذلك اسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والكراكي والحمام وسباع الطير جميعاً، وكلها لا يرى منها إذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع، فإذا احسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها، ولولا ذلك لامتلأت الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء.

فانظر إلى هذا الذي يخلص إليه الناس، وعملوه بالتمثيل الأول الذي مثل لهم كيف جعل طبعاً واذكاراً في البهائم وغيرها، ليسلم الناس من معرَّة ما يحدث عليهم من الأمراض والفساد.

* * *

الفطن التي جعلت في البهائم: الايل والثعلب والدلفين

فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها، بالطبع والخلقة، لطفاً من الله عز وجل لهم،

لئلا يخلو من نعمة الله عزّوجل في واحد من خلقه لا بعقلٍ وروية، فأن (الأيل) يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع عن شرب الماء، خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً، فيعج عجيجاً عالياً، ولا يشرب منه، ولو شرب لمات من ساعته.

فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة، من تحمل الظمأ الغالب الشديد، خوفاً من المضرة في الشرب، وذلك مما لا يكاد الإنسان العاقل المميز يضبطه من نفسه.

و (الثعلب) إذا اعوزه الطعم، تماوت ونفخ بطنه، حتى يحسبه الطير ميتاً، فإذا وقعت عليه لتنهشه، وثب عليها فأخذها. فمن أعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة، إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذه وشبهه. فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد، اعين بالدهاء والفطنة والاحتيال لمعاشه.

و (الدلفين) يلتمس صيد الطير، فيكون حيلته في ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويسرحه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه،

فإذا وقع الطير على السمك الطافي وثب إليها فاصطادها.

فأنظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصلحة.

* * *

التنين والسحاب

قال المفضل فقلت: اخبرني يا مولاي عن التنين والسحاب، فقال عليه السلام: إن السحاب كالموكل به، يختطفه حيثما ثقفه، كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه في الأرض خوفاً من السحاب، ولا يخرج إلا في القيظ مرة إذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة من غيمة.

قلت: فلمَ وكّل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه إذا وجده؟ قال: ليدفع عن الناس مضرته.

* * *

في الذرة والنمل واسد الذباب والعنكبوت وطبائع كل منهما

قال المفضل فقلت: قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر، فصف لي الذرة والنملة والطير، فقال عليه السلام: يا مفضل تأمل وجه «الذرة» الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها، فمن أين هذا التقدير والصواب في خلق الذرة؟ إلا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره.

انظر إلى «النمل» واحتشاده في جمع القوت واعداده، فإنك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى زبيتها بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام أو غيره، بل للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس مثله.. أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل، ثم يعمدون إلى الحب فيضمونه قطعاً. لكيلا ينبت فيفسد عليهم، فإن أصابه ندى اخرجوه فنشروه حتى يجف، ثم لا يتخذ النمل الزبية إلا في نشز ـ المكان المرتفع ـ من الأرض

كيلا يفيض السيل فيغرقها، وكل هذا منه بلا عقل ولا روية، بل خلقة خلق عليها لمصلحة من الله جل وعز.

انظر إلى هذا الذي يقال له «الليث» ـ أحد أنواع العناكب ـ وتسميه العامة «أسد الذباب» وما أُعطي من الحيلة والرفق في معاشه، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه. تركه ملياً حتى كأنه موات لا حراك به، فإذا رأى الذباب قد أطمأن وغفل عنه، دب دبيباً دقيقاً، حتى يكون منه بحيث تناله وثبته، ثم يثب عليه فيأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله، مخافة أن ينجو منه، فلا يزال قبضاً عليه، حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه، ويحيى بذلك منه.

فأما «العنكبوت» فإنه ينسج ذلك النسج، فيتخذه ـ شركاً ومصيدة للذباب، ثمّ يكمن في جوفه، فإذا نشب فيه الذباب أحال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة، يعيش بذلك منه.

فذلك يحكي صيد الكلاب والفهود، وهذا يحكي صيد الاشراك والحبائل.

فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة، كيف جعل في طبعها

ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها، فلا تزدري بالشيء إذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة والنملة وما أشبه ذلك فأن المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير، فلا يضع منه ذلك كما لا يضع من الدينار وهو من ذهب أن يوزن بمثقال من حديد.

* * *

جسم الطائر وخلقته

تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته، فإنّه حين قدر أن يكون طائراً في الجو، خفف جسمه وأُدمج خلقه، واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين، ومن الأصابع الخمس على اربع، ومن منفذين المزبل والبول على واحد يجمعهما، ثم خلق ذا جؤجؤ محدد، ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه، كما جعلت السفينة بهذه الهيئة، لتشق الماء وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان، لينهض بها للطيران وكساهُ، كله الريش، ليتداخله الهواء فيقله، ولما قُدّر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ، نقص من خلقة الإنسان وخلق له منقار صلب جاسي يتناول

به طعمه، فلا ينسحج من لفظ الحب، ولا يتقصف من نهش اللحم، ولما عدم الاسنان، وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً اعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغني به عن المضغ، واعتبر ذلك بأن عجم العنب ـ النوى في داخله ـ وغيره، يخرج من أجواف الانس صحيحاً، ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر، ثم جعل مما يبيض بيضاً، ولا يلد ولادة، لكيلا يثقل عن الطيران، فإنه لو كانت الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم، لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذي قدر أن يكون عليه ثم صار الطائر السائح في هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه اسبوعاً وبعضها اسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع، حتى يخرج الفرخ من البيضة، ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسع حوصلته للغذاء، ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به. فمن كلفه أن يلقط الطعم والحب يستخرجه، بعد أن يستقر في حوصلته، ويغذو به فراخه...؟ ولأي معنى يحتمل هذه المشقة. وليس بذي روية ولا تفكر، ولا يأمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر...؟ فهذا من فعله يشهد

أنه معطوف على فراخه، لعله لا يعرفها ولا يفكر فيها، وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.

* * *

الدجاجة وتهيّجها لحضن البيض والتفريخ

انظر إلى «الدجاجة» كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ، وليس لها بيض مجتمع ولا وكر موطى، بل تنبعث وتنتفخ وتقوى وتمتنع من الطعم، حتى يجمع لها البيض، فتحضنه وتفرخ.. فلِمَ كان ذلك منها إلا لإقامة النسل؟ ومن أخذها بإقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير، لولا أنها مجبولة على ذلك؟

* * *

خلق البيضة والتدبير في ذلك

إعتبر بخلق البيضة، وما فيها من المح الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق، فبعضه ينشو منه الفرخ، وبعضه ليغتذي به، إلى أن تنقاب عنه البيضة، وما في ذلك من التدبير، فإنه لو كان نشوء الفرخ في تلك القشرة المستحفظة

التي لا مساغ لشيء إليها، جعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها، كمن يُحبس في حبس حصين لا يوصل إلى من فيه، فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه.

***

حوصلة الطائر

فكر يا مفضل في حوصلة الطائر، وما قدر له، فإنَّ مسلك الطعم إلى القانصة ضيق، ولا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً قليلاً، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية، حتى تصل الأولى إلى القانصة، لطال عليه، ومتى كان يستوفي طعمه؟. فإنما يختلسه اختلاساً، لشدة الحذر، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه، ليوعى فيها ما ادرك من الطعم بسرعة، ثم تنفذه إلى القانصة على مهل، وفي الحوصلة ايضاً خلة اخرى، فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب اسهل عليه.

***

اختلاف ألوان الطير وعلة ذلك

قال المفضل فقلت: أن قوماً من المعطلة يزعمون أن اختلاف الألوان والأشكال في الطير إنما يكون من قبل إمتزاج الاخلاط، واختلاف مقاديرها المرج والأهمال.

قال: يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج والتدارج على استواء ومقابلة، كنحو ما يخط بالأقلام، كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف، ولو كان بالاهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً.

***

ريش الطائر ووصفه

تأمل ريش الطير وكيف هو...؟ فإنك تراه منسوجاً كنسج الثوب من سلوك دقاق، قد أُلّف بعضه إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة، ثم ترى ذلك النسج إذا مددته ينفتح قليلاً ولا ينشق لتداخله الريح، فيقل الطائر إذا طار، وترى في وسط الريشة عموداً غليظاً

متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته، وهو القصبة التي في وسط الريشة، وهو مع ذلك أجوف، ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران.

* * *

الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت ما له من المنفعة في طول ساقيه، فإنه أكثر ذلك في ضحضاح من الماء فتراه بساقين طويلين، كأنه ربيئة فوق مرقب وهو يتأمل ما يدب في الماء، فإذا رأى شيئاً مما يتقوّتُ به، خطا خطوات رقيقة حتى يتناوله، لو كان قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه، يصيب بطنه الماء، فيثور ويذعر منه، فيفرق عنه، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر، فإنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق، وذلك ليتمكن من تناول طعمه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق، لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أُعين مع العنق

بطول المناقير، ليزداد الأمر عليه سهولة وامكاناً أفلا ترى أنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة.

* * *

العصافير وطلبها للأكل

انظر إلى العصافير، كيف تطلب أكلها بالنهار فهي لا تفقده ولا تجده مجموعاً معداً، بل تناله بالحركة والطلب، وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق كيف فرَّقه. فلم يجعل مما لا يقدر عليه، إذ جعل بالخلق حاجة إليه، ولم يجعله مبذولاً ينال بالهوينا إذ كان لا صلاح في ذلك فإنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم تنقلب عليه، ولا تنقطع عنه حتى تبشم فتهلك. وكان الناس أيضاً يصيرون بالفراغ إلى غاية الأشر والبطر حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش.

* * *

معاش البوم والهام والخفاش

أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل، كمثل البوم والهام والخفاش؟..

قلت: لا يا مولاي.

قال: إن معاشها من ضروب تنتشر في الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد واليعاسيب. وذلك أن هذه الضروب مبثوثة في الجو لا يخلو منها موضع.. واعتبر ذلك بأنك إذا وضعت سراجاً بالليل في سطح أو عرصة دار، اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير.. فمن أين يأتي ذلك كله، إلا من القرب؟ فإن قال قائل: أنه يأتي من الصحاري والبراري، قيل له: كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد، وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً في دار محفوفة بالدور فيقصد إليه، مع أن هذه عياناً تتهافت على السراج من قرب، فيدل ذلك على أنها منتشرة في كل موضع من الجو، فهذه الأصناف، من الطير تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها.

فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو، واعرف ذلك المعنى في خلق هذه الضروب المنتشرة، التى عسى أن يظن ظان انها فضل لا معنى له.

* * *

خلقة الخفاش

خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع، هو إلى ذوات الأربع أقرب، وذلك أنه ذو اذنين ناشزتين وأسنان ووبر وهو يلد ولاداً ويرضع ويبول، ويمشي إذا مشى على أربع، وكل هذا خلاف صفة الطير، ثم هو أيضاً مما يخرج بالليل، ويتقوتُ بما يسري في الجو من الفراش وما اشبهه، وقد قال قائلون أنه لا طعم للخفاش وإن غذاءه من النسيم وحده، وذلك يفسد ويبطل من جهتين: احدهما خروج التفل والبول منه، فإن هذا لا يكون من غير طعم، والأخرى أنه ذو أسنان، ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للاسنان فيه معنى، وليس في الخلقة شيء لا معنى له، وأما المآرب فيه فمعروفة، حتى أن زبله يدخل في بعض

الأعمال، ومن أعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه، وتصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة.

* * *

حيلة الطائر أبو نمرة بالحسكة ومنفعتها

فأما الطائر الصغير الذي يقال له (ابن نُمرّه) فقد عشش في بعض الأوقات في بعض الشجر، فنطر إلى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشه فاغرة فاها، تبغيه لتبتلعه، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها إذ وجد حسكة، فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت. أفرأيت لو لم اخبرك بذلك، كان يخطر ببالك او ببال غيرك أنه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة، أو يكون من طائر صغير أو كبير مثل هذه الحيلة.. اعتبر بهذا وكثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف بحادث يحدث أو خبر يسمع به.

* * *

النحل: عسله وبيوته

انظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من دقائق، فإنك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك، ففي هذه أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها، وسخره فيها لمصلحة الناس.

* * *

الجراد وبلاؤه

انظر إلى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه!.. فإنك إذا تأملت خلقه رأيته كأضعف الاشياء وإن دلفت عساكره نحو بلد من بلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه.. ألا ترى أن ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله ليحمي بلاده

من الجراد لم يقدر على ذلك. أفليس من الدلائل على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه، فلا يستطيع دفعه.

* * *

كثرة الجراد

انظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، فلو كان هذا مما يصنع بالأيدي، متى كان تجتمع منه هذه الكثرة؟ وفي كم سنة كان يرتفع فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء، ولا يكثر عليها.

* * *

وصف السمك

تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه، فإنه خلق غير ذي قوائم، لأنه لا يحتاج إلى المشي، إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية، لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة، وجعلت له مكان القوائم

اجنحة شداد يضرب بها في جانبيه، كما يضرب الملاح بالمجاذيف من جانبي السفينة، وكسا جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات، فأعين بفضل حس في الشم، لأن بصره ضعيف، والماء يحجبه، فصار يشم الطعم من البعد البعيد، فينتجعه فيتبعه، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه؟ واعلم أن من فيه إلى صماخه منافذ، فهو يعب الماء بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح إلى ذلك، كما يتروح غيره من الحيوان إلى تنسم هذا النسيم.

* * *

كثرة نسل السمك وعلة ذلك

فكر الآن في كثرة نسله وما خُصّ به من ذلك، فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، والعلة في ذلك أن يتسع لما يغتذي به من اصناف الحيوان، فإنَّ أكثرها يأكل السمك، حتى أن السباع أيضاً في حافات الآجام عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك، فإذا مر بها خطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير

يأكل السمك، والناس يأكلون السمك، والسمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة.

* * *

سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين

فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والأصداف والأصناف التي لا تحصى، ولا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث، مثل القرمز فإنه لما عرف الناس صبغه، بأن كلبة تجول على شاطى البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى الحلزون، فأكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً، وأشباه هذا مما يقف الناس عليه حالاً بعد حال وزماناً بعد زمان.

قال المفضل: وحان وقت الزوال، فقام مولاي عليه السلام إلى الصلاة وقال: بكِّر إليَّ غداً إنشاء الله تعالى.. فانصرفت وقد تضاعفت سروري بما عرفنيه،

مبتهجاً بما منحنيه، حامداً لله على ما آتانيه، فبت ليلتي مسروراً مبتهجاً.

* * *

المجلس الثالث:

فلما كان اليوم الثالث بكّرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فأذن لي بالجلوس فجلست، فقال عليه السلام : -

الحمد لله الذي اصطفانا ولم يصطف علينا، اصطفانا بعلمه، وأيدنا بحلمه من شذّ عنا فالنار مأواه، ومن تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه.. قد شرحت لك يا مفضل خلق الإنسان، وما دبر به، وتنقله في احواله، وما فيه من الاعتبار، وشرحت لك امر الحيوان... وانا ابتدىء الآن بذكر السماء والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل والنهار والحر والبرد والرياح والجواهر الأربعة الأرض والماء والهواء والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والنخل والشجر وما في ذلك من الأدلة والعبر.

لون السماء وما فيه من صواب التدبير

فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة وتقوية للبصر، حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره ادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقد وصف الحذاق منهم لمن كلَّ بصره الاطلاع في إجانة خضراء مملوءَة ماءً، فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المتقلبة عليه، فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بالفكر والروية والتجارب، يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة، بالغة ليعتبر بها المعتبرون، ويفكر فيها الملحدون، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك

فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في

امورهم، والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه... والأرب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الاطناب في ذكره، والزيادة في شرحه... بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون ابدانهم، وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل، ومطاولته على ما يعظم نكايته في ابدانهم، فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم، لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والادخار، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس بضيائها، ويحمي كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا، فصار النور والظلمة، مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

* * *

التدبير والمصلحة في الفصول الأربعة من السنة

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيهما مواد الثمار، ويتكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات، وتنور الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد، وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار، وتتحلل فضول الابدان، ويجف وجه الأرض، فتهيأ للبناء والأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصح الأبدان، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه إلى مصالح اخرى لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام.

* * *

معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير. فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعة من السنة «الشتاء والربيع والصيف والخريف» تستوفيها على التمام، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي إلى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشور والنمو.. ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل. فبالسنة واخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم، إلى كل وقت وعصر من غابر الأيام، وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والاجازات والمعاملات، وغير ذلك من امورهم، وبمسير الشمس تكمل السنة، ويقوم حساب الزمان على الصحة.

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون؟ فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما

وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع اول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها، والأرب التي قدرت له. ولو تخلفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة التي لم يكن عندهم فيها حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه.

* * *

الاستدلال بالقمر في معرفة الشهور

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة. لأن دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة ونشوء الثمار وتصرمها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس

وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل، فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف.

* * *

ضوء القمر وما فيه من المنافع

فكر في انارته في ظلمة الليل والارب في ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل، لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النهار، ولشدة الحر وافراطه، فيعمل في ضوء القمر اعمالاً شتى، كحرث الأرض، وضرب اللبن، وقطع الخشب، وما أشبه ذلك، فجعل ضوء القمرمعونة للناس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وانساً للسائرين وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض. ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها، لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار، فيهلكهم ذلك، وفي تصرف القمر خاصة في مهله ومحاقه وزيادته ونقصانه

وكسوفه، من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصرف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون.

* * *

النجوم واختلاف مسيرها والسبب في أن بعضها راتبة والأخرى متنقلة

فكر يامفضل في النجوم واختلاف مسيرها، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك ولا تسير إلا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها، فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين، احدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحى، فالرحى تدور ذات اليمين، والنملة تدور ذات الشمال والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين: احداهما بنفسها فتتوجه أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها إلى خلفها.. فاسأل الزاعمين أن النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال، من غير عمد ولا صانع لها ما منعها أن تكون كلها راتبة أو تكون كلها منتقلة، فإن الأهمال معنى واحد فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين

على وزن وتقدير؟ ففي هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمدٍ وتدبير وحكمة وتقدير، وليس بإهمال كما يزعم المعطلة، فإن قال قائل: ولم صار بعض النجوم راتبةً وبعضها متنقلة؟ قلنا: انها لوكانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها من تنقل المتنقلة، ومسيرها في كل برج من البروج، كما يستدل بها على أشياء مما يحدث في العالم، ينتقل الشمس والنجوم في منازلها، ولو كانت كلها منتقلة، لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يوقف عليه، لأنه انما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها ينتقلها في البروج الراتبة كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها او لو كان تنقلها بحال واحد لاختلاط نظامها، وبطلت المآرب فيها، ولساغ القائل أن يقول أن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا، ففي اختلاف سيرها وتصرفها في ذلك من المآرب والمصلحة، أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

* * *

فوائد بعض النجوم

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا والجوزاء والشعريين وسهيل، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حاله دلالات يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض امورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت، فصار ظهور واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر، لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته، وما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة وكذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة، وكذلك أنها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجهين نحو الأرب والمصلحة، وفيهما مآرب اخرى علامات ودلالات على اوقات كثيرة من الأعمال، كالزراعة والغراس والسفر في البر والبحر، وأشياء مما يحدث في الأزمنة من الأمطار

والرياح والحر والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل، لقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة، مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر، فإنها تسير أسرع السير وأحثه. أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا، حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت واضطرمت في الجو؟ وكذلك أيضاً لو أن أناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخرُّوا لوجوههم.

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد، لكيلا تضر في الأبصار، وتنكأ فيها، وبأسرع السرعة. لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء، ليسد مسد الاضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة، كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافي في جوف الليل، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه.

فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير، حين يجعل للظلمة دولة ومدة لحاجة إليها، وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا.

* * *

الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق

فكر في هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على العالم هذا الدوران الدائم، بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الأزمان الأربعة المتوالية من التنبيه على الأرض وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة، كالذي بينت وشخصتُ لك آنفاً وهل يخفى على ذي لب أن هذا تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم، فإن قال قائل: إن هذا شيء اتفق أن يكون هكذا؟ فما منعه أن يقول مثل هذا في دولاب يراه يدور ويسقي حديقة فيها شجرٌ ونبات فيرى كلّ شيء من آلاته مقدراً بعضه يلقى بعضاً على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها. وبم كان يثبت هذا القول لو قاله وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه؟ أفينكر أن يقول في دولاب

خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض، أنه كان بلا صانع ومقدر، ويقدر أن يقول في هذا الدولاب الأعظم، المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر، لصلاح جميع الأرض وما عليها أنه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك، كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها، أي شيء كان عند الناس من الحيلة في أصلاحه.

* * *

مقادير الليل والنهار

فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل، كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار منتهى كل واحد منهما ـ إذا امتد ـ إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة؟ ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات؟ أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك ينهكها اجمع

ويؤديها إلى التلف، وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق كذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش، حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات، حتى يعفن ويفسد، كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس.

* * *

الحر والبرد وفوائدهما

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران[1] العالم، ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال، لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيهما من المصالح، ثم هما بعد دباغ الابدان التي عليها بقاؤها وفيهما صلاحها، فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت واخوت[2] وانتكثت.

فكر في دخول احدهما على الآخر بهذا التدريج

(١) يتعاوران: يتداولان.

(٢) اخوت: جاعت.

والترسل، فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك، حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول احدهما على الآخر مفاجأة، لأضر ذلك بالابدان واسقمها. كما أن احدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة، لَضَرّهُ ذلك وأسقم بدنه فلم يجعل الله عز وجل هذا الترسل في الحر والبرد، إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولِمَ جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟ فإن زعم زاعم: أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لابطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، فإن اعتل في الابطاء ببعد ما بين المشرقين سئل عن العلة في ذلك، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقى من هذا القول، حتى استقر عن العمد والتدبير.. لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية[1] المرة تنضج فتلين وتعذب، حتى يتفكه بها رطبة ويابسة.. ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا، ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت، وما يرد في الأرض للبذر... افلا ترى ما في الحر والبرد، من عظيم الغناء والمنفعة، وكلاهما مع

(١) الجاسية: الصلبة.

غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها[١] وفي ذلك عبرة لمن فكر، ودلالة على أنه من تدبير الحكيم، في مصلحة العالم وما فيه.

الريح وما فيها

وأنبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب، الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويمرض الاصحاء، وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفن البقول، ويعقب الوباء في الابدان، والآفة في الغلات. ففي هذا بيان: ان هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.

* * *

الهواء والاصوات

وانبئك عن الهواء بخلّة أخرى، فإن الصوت أثر يؤثره اصطكاك الاجسام في الهواء، والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم، فلو كان اثر هذا الكلام يبقى في الهواء، كما

(١) يمضها: يوجعها ويؤلمها.

يبقى الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه، فكان يكربهم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به، إلى أكثر مما يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأن ما يلفظ من الكلام اكثر مما يكتب، فجعل الخلاق الحكيم جلّ قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجاتهم، ثم يُحمى فيعود جديداً نقيّاً، ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع، وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة، وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل، بما يستنشق منه من خارج بما يباشر من روحه، وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤدي البعد البعيد.. وهو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع... ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح، فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحر والبرد، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح فالريح تروح عن الاجسام وتزجي السحاب من موضع إلى موضع، ليعم نفعه، حتى يستكثف فيمطر، وتفضه حتى يستخف فيتفشى وتلقح الشجر، وتسير السفن، وترخي الاطعمة، وتبرد الماء، وتشب النار، وتجفف الأشياء الندية، وبالجملة انها تحيي كل ما في

الأرض . . . فلولا الريح لذوى النبات، ولمات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت.

* * *

هيئة الأرض

فكر يا مفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الأربعة ليتسع ما يحتاج إليه منها. . فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اخشابهم وأحطابهم والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها. ولعل من ينكر هذه الفلوات الخاوية والقفار الموحشة. فيقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها، ثم فيها بعد تنفس، ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم، فكم بيداء وكم فدفد حالت قصوراً وجناناً، بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها، ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه أمر يضطره إلى الانتقال عنه.

ثم فكر في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فتكون موطناً مستقراً للأشياء، فيتمكن الناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والاتقان لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة، لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل ـ على قلة مكثها ـ حتى يصبروا إلى ترك منازلهم، والهرب عنها. . فإن قال قائل: فلمَ صارت هذه الأرض تزلزل؟ قيل له: إنّ الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهب لها الناس ليرعووا، وينتزعوا عن المعاصي، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في ابدانهم وأموالهم، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم، ويدخر لهم إن صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعد له شيء من أمور الدنيا، وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة. . ثم ان الأرض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة، وكذلك الحجارة، وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة، أفرأيت

لو أن اليبس أفرط على الأرض قليلاً، حتى تكون حجراً صلداً، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان، وكان يمكن بها حرث أو بناء؟؟ أفلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد.

* * *

فوائد الماء والسبب في كثرته

ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقه الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب فلم جعل الله عز وجل كذلك إلا لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح، ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها، ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض، فكان يمنع الناس من اعمالها، ويقطع الطرق والمسالك، ثم الماء لولا كثرته، وتدفقه في العيون والأودية والأنهار، لضاق عما يحتاج إليه الناس، لشربهم وشرب أنعامهم

ومواشيهم، وسقي زروعهم وأشجارهم وأصناف غلاتهم، وشرب ما يرده من الوحوش والطير والسباع، وتتقلب فيه الحيتان ودواب الماء، وفيه منافع أُخر أنت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فإنه سوّى الأمر الجليل المعروف من عظيم غنائه في احياء جميع ما على الأرض من الحيوان والنبات يمزج الأشربة فتلذ وتطيب لشاربها، وبه تنظف الأبدان والأمتعة من الدرن الذي يغشاها، وبه يبل التراب فيصلح للأعمال وبه يكفّ عادية النار إذا اضطرمت، وأشرف الناس على المكروه، وبه يستحم المتعب الكالّ فيجد الراحة من أوصابه، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها، فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار، وقلت: ما الأرب فيه؟ فعلم أنه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر وأصناف شتى تستخرج من البحر، وفي سواحله منابت العود اليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير، ثم هو بعد مركب للناس، ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة، كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق،

ومن العراق إلى الصين فإن هذه التجارات، لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدي اهلها. لأن اجر حملها يجاوز أثمانها، فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران: أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها والآخر انقطاع معاش من يحملها ويتعيش بفضلها.

* * *

فوائد الهواء والسبب في كثرته

وهكذا الهواء لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتحير فيه، ويعجز عما يحول إلى السحاب والضباب أولاً أولاً، فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية.

* * *

منافع النار وجعلها كالمخزونة في الاجسام

والنار أيضاً كذلك، فإنها لو كانت مبثوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه، ولما لم يكن بد من

ظهورها في الاحايين، لغنائها في كثير من المصالح، جعلت كالمخزونة في الاجسام، فتلتمس عند الحاجة إليها، وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها لئلا تخبو فلا هي تمسك بالمادة والحطب، فتعظم المؤونة في ذلك، ولا هي تظهر مبثوثة، فتحرق كل ما هي فيه، بل هي على تهيئة وتقدير، إجتمع فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم فيها خلة اخرى وهي مما خُصّ بها الإنسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة، فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه، فاما البهائم فلا تستعمل النار، ولا تستمتع بها، ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا، خلق للإنسان كفاً وأصابع مهيئة لقدح النار واستعمالها، ولم يعط البهائم مثل ذلك، لكنها أعينت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال الإنسان عند فقدها.

وأنبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا في ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس

تصرف اعمارهم بمنزلة من في القبور، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ، أو ينسج في ظلمة الليل، وكيف كان حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل، فاحتاج إلى أن يعالج ضماداً أو سفوفاً أو شيئاً يستشفى به.. فاما منافعها في نضج الأطعمة ودفاء الأبدان وتجفيف اشياء وتحليل اشياء وأشباه ذلك، فأكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى.

* * *

الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، لو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده.. ألا ترى أن الامطار إذا توالت عفنت البقول والخضر، واسترخت ابدان الحيوان وحصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض. وفسدت الطرق والمسالك وأن الصحو إذا دام جفت الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية، فأضر ذلك بالناس، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً اخرى من الأمراض... فإذا تعاقبا

على العالم هذا التعاقب إعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر، فصلحت الأشياء واستقامت.. فإن قال قائل: ولِمَ لا يكون في شيء من ذلك مضرة البتة؟ قيل له: ليمضَّ ذلك الانسان ويؤلمه بعض الألم، فيرعوي عن المعاصي، فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه، ويصلح ما فسد منه، كذلك إذا طغى واشتد، احتاج إلى ما يمضه ويؤلمه، ليرعوي ويقصر عن مساويه، ويثبته على ما فيه حظه ورشده.. لو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطيراً من ذهب وفضة، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت، فأين هذا من مطرة رواء يعم به البلاد، ويزيد في الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها.. أفلا ترى المطرة الواحدة ما اكبر قدرها، واعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون، وربما عاقت عن احدهم حاجة لا قدر لها، فيتذمر ويسخط ايثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه، جميلاً محموداً لعاقبته وقلة معرفته لعظيم الغناء والمنفعة فيها.

* * *

مصالح نزول المطر على الأرض وأثر التدبير فيه

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك، فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ويقل ما يزرع في الأرض.. ألا ترى إن الذي يزرع سيحاً[١] أقل من ذلك، فالأمطار هي التي تطبق الأرض، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة. وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة، ويحرمه الضعفاء، ثم أنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش، ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفق عليها، فصار ينزل نزولاً رقيقاً، فينبت الحب المزروع. ويحيي الأرض والزرع القائم.

(١) سيحاً: زراعة اسيح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الانهر والمياه الجارية.

وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى، فإنه يلين الابدان، ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الدماء المسمى باليرقان إلى أشباه هذا من المنافع، فإن قال قائل: أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير، لشدة ما يقع منه، أو برد يكون فيه تحطم الغلات، وبخورة يحدثها في الهواء، فيولد كثيراً من الأمراض في الابدان والآفات في الغلات؟ قيل: بلى قد يكون ذلك الفرط، لما فيه من صلاح الإنسان، وكفه عن ركوب العاصي والتمادي فيها. فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه، أرجح مما عسى أن يرزأ في ماله!.

***

منافع الجبال

انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة، التي يحسبها الغافلون: فضلاً لا حاجة إليها. والمنافع فيها كثيرة، فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج، فتبقى في قلالها لمن يحتاج إليه، ويذوب ما ذاب منه، فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام،

وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء[١] ويوجد فيها معادن لضرب من الجواهر، وما فيها خلال أُخر لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه.

* * *

أنواع المعادن واستفادة الإنسان منها

فكر يا مفضل: في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والجبسين والزرنيخ والمرتك والتوتيا والزئبق والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزمرد وضروب الحجارة، وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي عقل أن هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هذه الأرض، ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها، ثم

(١) الارحاء: جمع رحى وهي الطاحون.

قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر، ويستفيض في العالم، حتى تكثر الفضة والذهب، ويسقطا عند الناس. فلا تكون لهما قيمته. ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات، ولا كان يجبي السلطان الأموال ولا يدخرهما أحد للأعقاب، وقد أعطى الناس ـ مع هذا ـ صنعة الشبه من النحاس، والزجاج من الرمل. والفضة من الرصاص، والذهب من الفضة، وأشباه ذلك مما لا مضرة فيه.

فانظر كيف اعطوا ارادتهم في ما لا ضرر فيه، ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه، ومن أوغل في المعادن انتهى إلى وادٍ عظيم يجري منصلتاً بماء غزير، لا يدرك غوره، ولا حيلة في عبوره، ومن ورائه أمثال الجبال من الفضة.

تفكر الآن في هذا، من تدبير الخالق الحكيم، فإنه أراد جل ثناؤه أن يُري العباد قدرته، وسعة خزائنه، ليعلموا

أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل، لكن لا صلاح لهم في ذلك، لأنه لو كان فيكون فيها ـ كما ذكرنا ـ سقوط هذا الجوهر عند الناس، وقلة انتفاعهم به. واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الأواني والأمتعة، فما دام عزيزاً قليلاً، فهو نفيس جليل آخذ الثمن، فإذا فشا وكثر في ايدي الناس، سقط عندهم وخسَّت قيمته.. ونفاسة الأشياء من عزتها.

* * *

النبات وما فيه من ضروب المآرب

فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والاتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من انواع التجارة وغيرها، واللحاء والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع. أرأيت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها، كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب

والأتبان وسائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها، جليل موقعها، هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره، ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه.

* * *

الريع في النبات وسببه

فكر يا مفضل في هذا الريع الذي جعل في الزرع، فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة واكثر وأقل، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا ليكون في الغلة متسع، لما يرد في الأرض من البذر، وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل، ألا ترى أن الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطي أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم إلى ادراك زرعهم.

فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم، فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة، وكذلك الشجر والنبت والنخل يريع الريع الكثير، فإنك ترى الأصل الواحد حوله من فراخه أمراً عظيماً، فلِمَ كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس،

ويستعملونه في مآربهم، وما برد فيغرس في الأرض، ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما امكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس، ثم كان ان اصابته آفة انقطع أصله، فلم يكن منه خلف.

* * *

بعض النباتات وكيف تصان

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فإنها تخرج في أوعية مثل الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم، كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البرُّ وما أشبهه فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فإن قال قائل: أو ليس قد ينال الطير من البرّ والحبوب؟ قيل له: بلى على هذا قدر الأمر فيها، لأن الطير خلْق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالى له في ما تخرج الأرض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث بها ويفسد الفساد الفاحش. فإن الطير لو

صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلاً، فكان يعرض من ذلك أن يبشم الطير فيموت، ويخرج الزراع من زرعه صفراً، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوتُ به، ويبقى أكثره للإنسان، فإنه أولى به، إذ كان هو الذي كدح فيه وشقى به، وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطير.

* * *

الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء، جعلت اصولها مركوزة في الأرض لتنزع منه الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء، كما ترضع أصناف الحيوان امهاتها، ألم ترى إلى عمد الفساطيط

والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض والدوح العظام في الريح العاصف؟.

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم، متقدمة في خلق الشجر، لأن خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم... ألا ترى عمدها وعيدانها من الشجر، فالصناعة مأخوذة من الخلقة.

* * *

خلق الورق ووصفه

تأمل يامفضل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً، لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عام كامل، ولا احتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا

حركة ولا كلام، إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع.. واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق، فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها، لتسقيها وتوصل الماء إليها، بمنزلة العروق المبثوثة في البدن، لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه، وفي الغلاظ منها معنى آخر، فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها، لئلا تنهتك وتتمزق، فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب.. فالصناعة تحكي الخلقة وإن كانت لا تدركها على الحقيقة.

* * *

العجم والنوى والعلة في خلقه

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس إن عاق دون الغرس عائق، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة إليه في مواضع أُخر، فإن حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع آخر، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقّتها، ولولا ذلك لتشدخت وتفسخت، وأسرع

إليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه، فيستعمل منه ضروب من المصالح، وقد تَبيَّنَ لك موضع الأرب في العجم والنوى.

فكِّر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة، وفوق العجم من العنبة، فما العلة فيه؟ ولماذا يخرج في هذه الهيئة؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السدر والدُلب وما أشبه ذلك. فلِمَ صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة، إلا ليستمتع بها الإنسان؟

* * *

موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير

فكِّر في ضروب من التدبير في الشجر، فإنك تراه يموت في كل سنة موتة، فتحتبس الحرارة الغريزية في عوده، ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحيى وينتشر، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد، فترى الأغصان في الشجر

تتلقاك بثمارها حتى كأنها تناولكها عن يد، وترى الرياحين تتلقاك في أفنائها كأنها تجيئك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيه إلا تفكيه الإنسان بهذه الثمار والأنوار؟.. والعجب من أُناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

خلق الرمانة وأثر العمد فيه

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير، فإنك ترى فيها كأمثال التلال، من شحم مركوم في نواحيها، وحب مرصوف صفاً كنحو ما ينضد بالأيدي، وترى الحب مقسوماً أقساماً، وكل قسم منها ملفوفاً بلفائف من حجب منسوجة اعجب النسج والطفه وقشره يضم ذلك كله.

فمن التدبير في هذه الصنعة أنه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده، وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء. ألا ترى أن أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم، ثم لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب، وغشي

فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات، فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الاطناب والتذرع في الكلام، ولكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والاعتبار.

***

حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة

فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء والقثاء والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة، فإنه حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض، ولوكان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة، ولتقصف قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها.. فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل من القرع والبطيخ مفترشاً للأرض، وثماره مبثوثة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة، وقد

اكتنفتها جراؤها لترضع منها.

***

موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها

وانظر كيف صارت الأصناف توافي في الوقت المشاكل لها، من حمَّارة الصيف ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوّق إليها، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً منها مع ما يكون فيها من المضرة للأبدان. ألا ترى أنه ربما ادرك شيء من الخيار في الشتاء، فيمتنع الناس من أكله إلا الشره الذي لا يمتنع من أكل ما يضره ويسقم معدته.

***

في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في النخل، فإنه لما صار فيه إناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيه ذكورة اللقاح من غير غراس، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الاناث لتحمل وهو لا يحمل. تأمل خلقة الجذع كيف هو؟

فإنك تراه كالمنسوج نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى وأخرى معه معترضة كاللحمة كنحو ما ينسج بالأيدي، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات الثقيلة وهز الرياح العواصف إذا صار نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه إذا صار جذعاً.

وكذلك ترى الخشب مثل النسج فإنك ترى بعضه مداخلاً بعضه بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل اجزاء اللحم، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحصفاً كالحجارة لم يكن أن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشبة كالأبواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك... ومن جسيم المصالح في الخشب أنه يطفو على الماء، فكل الناس يعرف هذا منه، وليس كلهم يعرف جلالة الأمر فيه، فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والأظراف تحمل أمثال الجبال من الحمولة، وأنى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد، وكانت تعظم المؤنة عليهم في حملهم حتى يلقى كثير مما يحتاج إليه في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسر وجوده.

العقاقير واختصاص كل منها

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء، هذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج، وهذا ينزف المرّة السوداء مثل الافتيمون، وهذا ينفي الرياح مثل السكبينج، وهذا يحلل الأورام، وأشباه هذا من افعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها؟. ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال القائلون؟ وهب الإنسان فطن لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه، فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه إن اصابته ببعض العقاقير فيبرأ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم، واشباه هذا كثير، ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا أنس ولا انيس، فتظن أنه فضل لا حاجة إليه، وليس كذلك، بل هو طعم لهذه الوحوش، وحبه علف للطير، وعوده وأفنانه حطب، فيستعمله الناس، وفيه بعد اشياء تعالج بها الابدان،

واخرى تدبغ بها الجلود، واخرى تصبغ الامتعة، وأشباه هذا من المصالح. . ألست تعلم أن من اخس النبات واحقره هذا البردى وما أشبهها، ففيها مع هذا من ضروب المنافع، فقد يتخذ من البردى القراطيس التي يحتاج إليها الملوك والسوقة، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس، ويعمل منه الغلف التي يوقى بها الاواني، ويجعل حشواً بين الظروف وفي الاسفاط، لكيلا تعيب وتنكسر، وأشباه هذا من المنافع.

فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له، وأخس من هذا وأحقره الزبل، والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً، وموقعها من الزروع والبقول والخضر اجمع الموقع الذي لا يعدله شيء، حتى أن كُلّ شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس، ويكرهون الدنو منه.

واعلم أنه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين، وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم، فلا تستصغر العبرة في

الشيء لصغر قيمته، فلو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة، لاشتروها بأنفس الأثمان وغالوا بها.

قال المفضل: وحان وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة وقال بكر إليَّ غداً إن شاء الله تعالى. فانصرفت وقد تضاعف سروري بما عرفنيه، مبتهجاً بما آتانيه، حامداً لله على ما منحنيه. فبت ليلتي مسروراً.

* * *

المجلس الرابع:

قال المفضل: فلما كان اليوم الرابع بَكّرْت إلى مولاي فاستؤذن لي، فأمرني بالجلوس فجلست، فقال عليه السلام: منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس، للاسم الاقدم، والنور الأعظم، العلي العلام، ذي الجلال والاكرام، ومنشىء الأنام، ومفني العوالم والدهور، وصاحب السر المستور، والغيب المحظور، والاسم المخزون، والعلم المكنون، وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه، ومؤدي رسالته، الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيي من حيَّ عن بيَّنة، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات، والتحيات الزاكيات الناميات، وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين، أبد الآبدين،

ودهر الداهرين، وهم أهله ومستحقوه.

* * *

الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك

قد شرحت لك يا مفضل من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الإنسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك. ما فيه عبرة لمن اعتبر، وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير، وما انكرت المعطّلة والمنانية من المكاره والمصائب، وما أنكروه من الموت والفناء، وما قاله أصحاب الطبائع، ومن زعم أن كون الاشياء بالعرض والاتفاق، ليتسع ذلك القول في الرد عليهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

* * *

الآفات ونظر الجهال إليها والجواب على ذلك

اتخذ أناس من الجهال هذه الآفات الحادثة في بعض

الأزمان ـ كمثل الوباء واليرقان والبرد والجراد ـ ذريعة إلى حجود الخالق والتدبير والخلق، فيقال في جواب ذلك: أنه ان لم يكن خالق ومدبر فلم لا يكون ما هو أكثر من هذا وأفظع؟ فمن ذلك أن تسقط السماء على الأرض، وتهوي الأرض فتذهب سفلاً، وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلاً، وتجف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة، وتركد الريح، حتى تخمَّ الأشياء وتفسد، ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها، ثم هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما اشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد، حتى تجتاح كل ما في العالم، بل تحدث في الأحايين، ثم لا تلبث أن ترفع. أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بواره ويلذع احياناً بهذه الآفات اليسيرة، لتأديب الناس وتقويمهم، ثم لا تدوم هذه الآفات، بل تُكْشَفُ، عنهم عند القنوط منهم، فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة.

وقد أنكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول: إن كان للعالم خالق رؤوف رحيم، فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة.. والقائل

بهذا القول يذهب إلى أنه ينبغي أن يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر، ولو كان هكذا كان الإنسان يخرج من الأشر والعتو إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا، كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والامن، يخرجون إليه حتى أن أحدهم ينسى أنه بشر، وأنه مربوب، أو أن ضرراً يمسه، أو أن مكروهاً ينزل به، أو أنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً، أو يواسي فقيراً، أو يرثي المبتلي، أو يتحنن على ضعيف، أو يتعطف على مكروب، فإذا عضته المكاره ووجد مضضها، اتعظ وابصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه.

والمنكرون لهذه الأمور المؤدّبة بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرّة البشعة، ويتسخطون من المنع من الأطعمة الضارة، ويتكرهون الأدب والعمل، ويحبون أن يتفرغوا للهو والبطالة، وينالوا كل مطعم ومشرب، ولا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشو والعادة، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الأدواء والاسقام، وما لهم في الأدب من الصلاح، وفي الأدوية من المنفعة، وإن شاب ذلك بعض الكراهة، فإن قالوا: فلِمَ لم يكن الإنسان

معصوماً من المساوي، حتى لا يحتاج إلى أن تلذعه هذه المكاره، قيل: إذاً يكون غير محمود على حسنة يأتيها، ولا مستحقاً للثواب عليها. فإن قالوا: وما كان يضره أن لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب، بعد أن يصير إلى غاية النعيم واللذات؟ قيل لهم: اعرضوا على امرىء صحيح الجسم والعقل، أن يجلس منعماً، ويكفي كلما يحتاج إليه بلا سعي ولا استحقاق، فانظروا هل تقبل نفسه ذلك، بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة اشد اغتباطاً وسروراً منه بالكثير مما يناله بغير سعي ولا استحقاق، وكذلك نعيم الآخرة أيضاً يكمل لأهله بأن ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له فالنعمة على الإنسان في هذا الباب مضاعفة، فإن اعد له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل إلى أن ينال ذلك بسعي واستحقاق، فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه.. فإنْ قالوا: أوَليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير، وإن كان لا يستحقه، فما الحجة في منع من رضي أن ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة؟ قيل لهم: أن هذا باب لو صح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب والضراوة على

الفواحش، وانتهاك المحارم، فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة في باب من ابواب البر لوثق بأنه صائر إلى النعيم لا محالة، أو من كان يأمن على نفسه وأهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب، فكان ضرر هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل الآخرة. فيكون في ذلك تعطيل العدل والحكمة معاً، وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها.

* * *

لماذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس، فتعم البر والفاجر أو يبتلي بها البر ويسلم الفاجر منها، فقالوا: كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه؟ فيقال لهم: ان هذه الآفات وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً. فإن الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أما الصالحون فإن الذي يصيبهم من هذا يزدهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر، وأما الطالحون فأن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم

وردعهم عن المعاصي والفواحش، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحاً في ذلك، أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة وأما الفجار فإنهم يعرفون رأفة ربهم، وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق. فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس، والصفح عمن أساء إليهم.. ولعل قائلاً يقول: ان هذه الآفات التي تصيب الناس في أموالهم، فما قولك فيما يبتلون به في أبدانهم، فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف؟ فيقال له: أن الله جعل في هذا أيضاً صلاحاً للصنفين جميعاً، أما الأبرار فَلِما لهم في مفارقة هذه الدنيا من الراحة من تكاليفها، والنجاة من مكارهها، وأما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص أوزارهم، وحبسهم عن الازدياد منها، وجملة القول أن الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة، فكما أنه إذا قطعت الريح شجرة أو قطعت نخلة، أخذها الصانع الرفيق واستعملها في ضروب من المنافع، فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم، فيصيرها

جميعاً إلى الخير والمنفعة.. فإن قال: ولم تحدث على الناس؟ قيل له: لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم، فلو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية، كما غلا الناس في أول الزمان. حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم.

* * *

الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك

ومما ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء. فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا. مبرئين من هذه الآفات، فينبغي أن يساق هذا الأمر إلى غايته، فينظر ما محصوله.

أفرأيت لو كان كُلٌّ من دخل العالم ويدخله يبقون، ولا يموت أحد منهم، ألم تكن الأرض تضيق بهم، حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعائش، فإنهم ـ والموت

يفنيهم أولاً فأولاً ـ يتنافسون في المساكن والمزارع، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب، وتسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم الحرص والشره، وقساوة القلوب، **فلو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله، ولا افرج** لأحد عن شيء يسأله، ولا سلا عن شيء مما يحدث عليه، ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره، حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا... فإن قالوا: أنه كان ينبغي أنه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا إليه. فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين. وإن قالوا: إنه كان ينبغي أنْ لا يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن والمعائش. قيل لهم: إذا كان يحرم اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن واحد، لا يتوالدون ولا يتناسلون... **فإن قالوا: أنه كان ينبغي أن يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما** خلق ويخلق إلى انقضاء العالم، يقال لهم: رجع الأمر إلى

ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعائش عنهم، ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الانس بالقرابات وذوي الارحام والانتصار بهم عند الشدائد، وموضع تربية الاولاد والسرور بهم، ففي هذا دليل على أن كلما تذهب إليه الأوهام ـ سوى ما جرى به التدبير ـ خطأ وسفه من الرأي والقول.

* * *

الطعن على التدبير من جهة اخرى والجواب عليه

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون ها هنا تدبير، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز، فالقوي يظلم ويغصب، والضعيف يظلم ويسالم الخسف، والصالح فقير مبتلى، والفاسق معافى موسع عليه، ومن ركب فاحشة أو انتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة. فلو كان في العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم، فكان الصالح هو المرزوق، والطالح هو المحروم، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف. والمنتهك للمحارم يعاجل بالعقوبة. . فيقال في جواب ذلك: أن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاحسان الذي فضل به الإنسان

على غيره من الخلق، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب، وثقة بما وعد الله عنه، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف، ويلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك، ولم يكن احد يعمل على يقين بثواب أو عقاب، حتى كان هذا يخرجهم عن حد الانسية إلى حد البهائم، ثم لا يعرف ما غاب، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل للرزق والسعة في هذه الدنيا، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنما يكف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته، حتى يكون أفعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها، مع أن هذه الأمور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه، بل قد تجري على ذلك احياناً والأمر المفهوم.

فقد ترى كثيراً من الصالحين، يرزقون المال لضروب من التدبير وكيلا يسبق إلى قلوب الناس أن الكفار هم المرزوقون، والابرار هم المحرومون، فيؤثرون الفسق على

الصلاح، وترى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبخت نصر[١] بالتيه وبلبيس بالقتل وإن أمهل بعض الاشرار بالعقوبة، وَأُخِّرَ بعض الاخيار بالثواب إلى الدار الآخرة، لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير، فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم، بل يكون تأخيرهم ما أخروه، وتعجيلهم ما عجلوه داخلاً في صواب الرأي والتدبير وإذا كانت الشواهد تشهد، وقياسهم يوجب أن للاشياء خالقاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه، فإنه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا بإحدى ثلاث خلال: إما عجز وإما جهل وإما شرارة، وكل هذا محال في صنعته عز وجل، وتعالى ذكره، وذلك أن العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطاول لخلقها وإنشائها، وإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق يدبرها لا محالة، وإن كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه، فإن

(١) أبو نبوخذ نصر كان أعظم ملوك الكلدانيين، وقد عرف بالشدة والبطش.

كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف أسبابه، لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وجد قائماً على الصواب والشاهد المحنة. ولو شككت في بعض الأدوية والأطعمة فيتبين لك من جهتين أو ثلاث أنه حار أو بارد، ألم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك؟ فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة واكثر منها ما لا يحصى كثرة ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلاً صوابه، لما كان من حزم الرأي وسمت الأدب أن يقضي على العالم بالاهمال لأنه كان في النصف الآخر وما يظهر فيه من الصواب، واتقان ما يردع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية، فكيف وكلما فيه إذا فتش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبالِ شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه.

* * *

اسم هذا العالم بلسان اليونانية

واعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم «قوسموس» وتفسيره الزينة،

وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة، أفكانوا يسمونه بهذا الأسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة، ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان، على غاية الحسن والبهاء.

* * *

عمى (ماني) عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الاسرار

اعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ، وهم يرون الطبيب يخطىء، ويقضون على العالم بالاهمال، ولا يرون شيئاً منه مهملاً، بل اعجب من أخلاق من ادَّعى الحكمة، حتى جهلوا مواضعها في الخلق، فأرسلوا ألسنتهم بالذم للخالق جل وعلا... بل العجب من المخذول (ماني) حين ادَّعى علم الاسرار وعمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحكيم الكريم.

* * *

إنتقاد المعطلة فيما راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل

وأعجب منهم جميعاً (المعطلة) الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل، فلما أعوزهم ذلك، خرجوا إلى الجحود والتكذيب، فقالوا: ولم لا يدرك بالعقل؟ قيل: لأنه فوق مرتبة العقل، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته.. فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أن رامياً رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل، لأن العقل هو الذي يميزه، فيعلم إن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه.. أفلا ترى كيف وقف البصر على حده، فلم يتجاوزه، فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه، ولكن يعقله بعَقل اقرّ أن فيه نفساً ولم يعاينها، ولم يدركها بحاسة من الحواس.

* * *

معرفة العقل للخالق معرفة إقرار لا معرفة احاطة

وعلى حسب هذا أيضاً نقول: أن العقل يعرف الخالق

من جهة توجب عليه الاقرار، ولا يعرفه بما يوجب له الاحاطة بصفته.. فإن قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف، ولا يحيط به؟ قيل لهم إنما كلف لعباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه، ولم يكلفوا الاحاطة بصفته، كما أن الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير، وأبيض هو أم أسمر، وإنما يكلفهم الاذعان لسلطانه، والانتهاء إلى أمره. ألا ترى أن رجلاً لو أتى باب الملك، فقال: أعرض عليَّ نفسك حتى اتقصى معرفتك، وإلا لم أسمع لك كان قد أحل نفسه بالعقوبة... فكذا القائل أنه لا يقرُّ بالخالق سبحانه، حتى يحيط بكنهه متعرضاً لسخطه.. فإن قالوا: أوليس قد نصفه؟ فنقول: هو العزيز الحكيم الجواد الكريم؟ قيل لهم كل هذه صفات اقرار، وليست صفات احاطة، فإنا نعلم أنه حكيم، ولا نعلم بكنه ذلك منه، وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها، ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه، بل فوق هذا المثال بما لا نهاية له، ولأن الأمثال كلها تقصر عنه، ولكنها تقود العقل إلى معرفته.. فإن قالوا: ولَم

يختلف فيه؟ قيل لهم: لقصر الأوهام عن مدى عظمته، وتعدّيها اقدارها في طلب معرفته، وانها تروم الاحاطة به، وهي تعجز من ذلك وما دونه.

* * *

الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها

فمن ذلك هذه الشمس التى تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها.. ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء ناراً، له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع.. وقال آخرون: هو سحابة.. وقال آخرون: هو جسم زجاجي، يقل نارية في العالم، ويرسل عليه شعاعها.. وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد ماء البحر.. وقال آخرون هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار.. وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة. ثم اختلفوا في شكلها.. فقال بعضهم: هي بمنزلة صفيحة عريضة.. وقال آخرون هي كالكرة المدحرجة.. وكذلك

اختلفوا في مقدارها.. فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء... وقال آخرون بل هي أقل من ذلك. وقال آخرون بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة. وقال أصحاب الهندسة هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة... ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس، دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر، ويدركها الحس، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم؟.. فإن قالوا: وَلِمَ استتر؟ قيل لهم: لم يستتر بحيلة يخلص إليها، كمن يحجب من الناس بالأبواب والستور. وإنما معنى قولنا استتر أنه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام، كما لطفت النفس. وهي خلق من خلقه. وارتفعت عن ادراكها بالنظر.. فإن قالوا ولِمَ لطف تعالى عن ذلك علواً كبيراً؟ كان ذلك خطأ من القول، لأنه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء إلا أن يكون مبايناً لكل شيء، متعالياً عن كل شيء سبحانه وتعالى.

***

الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه وتفصيل ذلك

فإن قالوا: كيف يعقل أن يكون مبايناً لكل شيء متعالياً عن كل شيء؟ قيل لهم: الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة اوجه، فأولها: أن ينظر أموجود هو أم ليس بموجود، والثاني: أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره؟ والثالث: أن يعرف كيف هو وما وصفته؟ والرابع: أن يعلم لماذا هو ولأي علة؟ فليس من هذه الوجود شيء يمكن للمخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته، غير أنه موجود فقط. فإذا قلنا: وكيف وما هو؟ فممتنع علم كنهه، وكمال المعرفة به. وأما لماذا هو؟ فساقط في صفة الخالق؛ لأنه جل ثناؤه علة كل شيء. وليس شيء بعلة له، ثم ليس علم الإنسان بأنه موجود، يوجب له أن يعلم: ما هو وكيف هو؟ كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم: ما هي وكيف هي؟ وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة... فإن قالوا فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفاً، حتى كأنه غير معلوم؟ قيل لهم: هو كذلك من جهة إذا رام العقل معرفة

كنهه والاحاطة به، وهو من جهة اخرى أقرب من كل قريب إذا استدل عليه بالدلائل الشافية. فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد وهو من جهة كالغامض لا يدركه احد، وكذلك العقل أيضاً ظاهر بشواهده ومستور بذاته.

* * *

أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم

فأما (أصحاب الطبائع) فقالوا: إنَّ الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا عمَّا فيه تمام الشيء في طبيعته، وزعموا أن الحكمة تشهد بذلك، فقيل لهم: فمن اعطى الطبيعة هذه الحكمة، والوقوف على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب؟ فإن اوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال، فقد أقرّوا بما أنكروا، لأن هذه في صفات الخالق. وإن انكروا أن يكون هذا للطبيعة، فهذا وجه الخلق يهتف بأن الفعل للخالق الحكيم، وقد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد والتدبير في الأشياء، وزعموا أن كونها بالعرض والاتفاق وكان مما احتجوا به هذه الآيات التي تكون على غير مجرى العرف والعادة كانسان يولد ناقصاً أو زائداً إصبعاً، أو يكون

المولود مشوهاً مبدل الخلق فجعلوا هذا دليلاً على أن كون الأشياء ليس بعمد وتقدير بل بالعرض كيف ما أتفق أن يكون؟. وقد كان (ارسطاطاليس) رد عليهم فقال: إنّ الذي يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتي في الفرط مرة لأعراض تعرض للطبيعة فتزيلها عن سبيلها، وليس بمنزلة الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياً دائماً ومتتابعاً.

وأنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان أن يجري أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد، كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع، كما عليه الجمهور من الناس، فاما ما يولد على خلاف ذلك فإنه لعلة تكون في الرحم، أو في المادة التي ينشأ منها الجنين، كما يعرض في الصناعات، حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته، فيعوق دون ذلك عائق في الأداة، أو في الآلة التي يعمل فيها الشيء، فقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفها، فيأتي سوياً لا علة فيه، فكما أن الذي يحدث في بعض اعمال الأعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعاً الاهمال وعدم الصانع، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية

لعائق يدخل عليها، لا يوجب أن يكون جميعها بالعرض والاتفاق، فقول من قال في الأشياء أن كونها بالعرض والاتفاق من قبيل أن شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطأ وخطل. . . فإن قالوا: ولمَ صار مثل هذا يحدث في الأشياء؟ قيل لهم ليعلم أنه ليس كون الأشياء باضطرار من الطبيعة، ولا يمكن أن يكون سواه ـ كما قال القائلون ـ بل هو تقدير وعمد من خالق حكيم، إذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف، وتزول أحياناً عن ذلك، لأعراض تعرض لها، فيستدل بذلك على أنها مصرفة مدبرة فقيرة إلى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها، واتمام عملها، تبارك الله أحسن الخالقين.

يا مفضل خذ ما آتيتك، واحفظ ما منحتك، وكن لربك من الشاكرين، ولآلائه من الحامدين، ولأوليائه من المطيعين، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد، وقليلاً من كثير، وجزءاً من كل، فتدبره وفكر فيه واعتبر به.

فقلت: بمعونتك يا مولاي أقر على ذلك، وابلغه إن شاء الله. . فوضع يده على صدري فقال: إحفظ بمشيئة

الله، ولا تنسَ إن شاء الله، فخررت مغشياً عليّ، فلما أفقت قال: كيف ترى نفسك يا مفضَّل؟ فقلت: قد استغنيت بمعونة مولاي وتأييده عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك بين يدي كأنما اقرأه من كفي، فلمولاي الحمد والشكر كما هو أهله ومستحقه.

فقال: يا مفضل فرغ قلبك، واجمع اليك ذهنك وعقلك وطمأنينتك فسألقي إليك من علم ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه، وأصناف الملائكة وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم إلى سدرة المنتهى، وسائر الخلق من الجن والانس، إلى الأرض السابعة السفلى وما تحت الثرى، حتى يكون ما وعيته جزءاً من اجزاء. انصرف إذا شئت مصاحباً مكلوءاً، فأنت منا بالمكان الرفيع، وموضعك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ولا تسألن عما وعدتك حتى احدث لك منه ذكراً.

قال المفضل: فانصرفت من عند مولاي بما لم ينصرف احد بمثله.

* * *

الفهرس

المجلس الأول

المجلس الثاني

المجلس الثالث

المجلس الرابع